سمير عبده

العرب والحضارة العلمية الحديثة

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

العرب
والحضارة العلمية
الحديثة

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الآفاق الجديدة

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

مقدمة

كان التحولان التاريخيان الكبيران - اذا وضعنا جانبا الاضطرابات ذات الطابع الديني - هما الثورة الزراعية التي نمت في منطقة الهلال الخصيب من الشرق الادنى قبل عشرة آلاف سنة ، والثورة الصناعية التي انطلقت في البدء قبل مائتي عام في هولندا وبريطانيا العظمى • فقد انتشرت هذه الثورة وتلك حول الكرة الارضية وقلبتا طرق العيش • ولكن اذا كانت الثورة الزراعية قد دامت مائة قرن فان الثورة الصناعية ستكتمل ولا ريب في اربعمائة سنة ، أي في حوالي عام ٢٢٠٠ على الاكثر • وستظهر في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين اقتصاديات اطلق عليها منذ الآن وصف فوق الصناعية وبعد الصناعية : انها ستؤدي الى تغيير المؤسسات والثقافات وتقيم تدريجيا نوعا من الاقتصاد جديدا ومناسبا •

والسمات البارزة في هذا النشاط ، هي انه لاول مرة طرح البحث بروح محايدة في مصير الانسانية جمعاء ، دون اختصاص بمجتمع او تعصب للأمة ، أو فترة من حقبات الزمن كما كان مألوفا في هذا المجال من الابحاث • وقد كانت الميزة الفكرية الجديدة في البحث المجتمعي هذا أنه ابتعد ما أمكنه عن موعظات السلوك

التبشيرية وتهويمات الغيب الساذجة التي كان يجري بواسطتها التكهن بما سيأتي به المستقبل ٠

وقد وصل الامر الى بعض الغلاة الى نفي قيمة كل اجتهاد فلسفي في غير فلسفة التاريخ للتعرف الى ملامح المستقبل والحدس بوجهة سيره وطرائق تحركه ٠ ولا شك بأن أبرز هؤلاء الغلاة كان المفكر الالماني اشبنغلر ، كما كان أبرز مفكري القرن العشرين في هذا الحقل ٠ وقد أقر بشرعية مناهج السلوك لدى جميع الحضارات التاريخية الماضية ، وأعطى كل مجتمع حقه بشخصيته ووجهة نزوعه ٠ وبهذه (الروح) أعطى فكرته الشهيرة المتشائمة عن المجتمع الغربي المعاصر ٠ وباسم التاريخ وما استنتج منه من قرائن ودلالات أنذر هذا المجتمع بالسقوط في الهاوية ٠ انه لم يدع معرفة طريق الخلاص ، كما لم يشر الى كبش الفداء ، وكأنه أراد اقفال باب الحوار معه ٠ وهكذا نتركه ومن ماثله واتبعه مع انذاره لنرى غيره ممن قالوا بطريق الخلاص ، أو أشاروا الى ضحية الفداء ٠

والحال انه لم تكن مفاجأه ان ينال الاقتصاد المركز الاول لدى بعض الباحثين عن دوافع تطور المجتمعات ٠ فالعالم الواقعي الذي قاد اليه منطق علم المادة لم يستثن الانسان في مناهج دراساته ٠ وهكذا تناول فيه ألزم حاجاته المادية اليه وهي حاجات غذائه وكسائه ٠ وقد انفجرت الثورة الماركسية الكبرى لتلتزم بهذه الفكرة ٠ ولا زالت نظرتها الاقتصادية تحرك جميع المجتمعات المماثلة للمجتمع الذي تأتت تلك الثورة عنه ٠

ويشار هنا الى ان هناك لغزا كبيرا لا بد من الاشارة اليه وللتأمل فقط ٠ انه اللغز المحير في الاقتصاد ذاته وبوفرة الكساء والغذاء على التحديد ٠ فقد اتفق (منظمو) المجتمع ومفكروه على ضرورة الحصول على الرفاه والازدهار ٠ ولكن أي عبث عدمي نراه في سير التاريخ ٠٠!! فأيضا يتفق هؤلاء وغيرهم على ان كل حضارة

من حضارات الماضي انما سقطت عنـــدما اردهر بها الاقتصاد ، دخلها الثراء فانحلت في ابنائها رغبات السعـــي والجد للبناء ، فتهـــاوت ٠

والواقع ان هذا الكلام يجانب برأينا بعض الحقيقة ، فمـا يحدث في المجتمعات المتقدمة هو نهـــب للعالم الفقير ، مع اكثار الغنى للفئة الاولى وتفقير الفقير للفئة الثانية ٠ وبالطبع فان ما أشار اليه منظمو المجتمع (المحايدون) كانوا يرمون به المجتمعات الصناعية ليس الا ، لان المجتمعات الفقيرة ستظل فقيرة ما دامت العوامل التي أبقتها في اوضاعها التعيسة لا زالت قائمة ٠

ان تنمية الانتاج وتوزيعه العادل على كل الناس لمطمح عظيم في عصر الحضارة العلميـــة الحديثة ، لنا نحن العرب والشـعوب الاخرى ٠ وقد يأتي بسهولة في هذه المرة بعد انتشار الآلة وتقـدم وسائل الانتاج والرفاه ٠ ولكن حذاري من مصير الانسانية مع رفاهها العام ، انها المعضلة التي ستواجه علماء الاجتماع في الازمنة القريبة المقبلة ٠ فنجاح المجتمع لم يكن يوما برفاهه وازدهار اقتصاده ٠ بل دائما كان الثراء نذير نهايته ٠ ووسوسة الذهب والحلى كانت نغم انحداره وتدهوره ٠ وان يكـــن الدارسون وعوا هذه الظواهـر بطريق العقل والمنطق فقد وعاها الكثيرون غيرهم بالحدس ومحاولات النبؤة ، حتى الأجدنا نقرأ نبؤات الانبياء القدامى على المدن التي يطلبون لها النوازل والخراب وكأن أصحابها يقفون بعد التاريـخ ليتكلموا حولـه ٠

والعالم الاجتماعي العربي ابن خلدون لم يغفل هذه الملاحظة ، فحكم بأن انحلال الحضارة يكون في رفاه المدينة دائما ، كما لاحظ بأن (عندما تشرف الدولة على نهاية عمرها يكون حينئذ العمران في نهاية الوفور والنماء) ٠

لهذا علينا ان ندرس الطريق الذي سنسلكه للرفاه الاجتماعي المعاصر والمقبل كي نتجنب فاعليه هذه الفاعدة التي سار عليها التاريخ حتى الآن ! وايـــة حدود أرانا ملزمين بالبحث عنها لوقف انحلال الرفاه الذي قضت بموجبه الحضارات الماضية ! فدائما كان يعم الكسل مع انتشار وسائل الرفاه فتتخنث رجولة المجتمع ويعجز عن الابداع ، كما يفشل في حفظ روابط المجتمع ٠

أيصح القول دائما ان الغزو الخارجي هو الذي يهزم المجتمع ويقصي عليه ، أم ان انحلاله في الداخل بعد ترفهه هو الذي كان يهزمه ٠ فروما هزمت في ملاعب اللهو ومسارح التمثيل والحمامات العامة والولائم الثرية ، قبل ان يهزمها أعداؤها ٠ وبغداد لم تهزمها جحافل المغول لقلة عدد جيوشها وضعـــف امكاناتها ، بل هزمها تزاحم سراتها في اقتناء القصور والجواري والغلمان ٠

والنذير دوما في ذلك كان في بدء انتصار المدن الكبرى علـى الارياف والقرى ، حيث يترك الاهلون مجتمعاتهم المرتكزة الـى الاعتماد على الذات ويأتون ليعيشوا فيها كطبقة غريبة عنها لا تحمل معها شيئا من روابطها القديمة المتينة ٠

لقد اصبحنا في الحضارة العلمية الحديثة قادرين بآلاتنا الدقيقة على صنع آلات اكثر دقة منهـــا ٠ وبالكشوفات الصعبة اصبحنا أقدر على كشف ما هو اصعب ٠ ولكننا لا نزال نلقى في الخارج ، في انظمة المجتمع وتقاليده ما يشعرنا بحظر هذه الكشوف وغربتها عمن يقوم بها وتمردها عليه بدل خضوعها لاخلاقيته ووقوفها عند الغايات المقصودة منها ٠ ومن هنا أضحت المطالبة ملحة بالتطور المجتمعي لمواكبتها والسير وفق الاخلاقية المناسبة لها بدلا من كونها جاءت لسد حاجات اجتماعية ولتخضع لاخلاقية من يقوم بها ويبذل الجهود في سبيلهـــا ٠

ولاول مرة في التاريخ ، نشعر بالافتراق بين الانسان وانجازاته في العلم ، فنرى عقله بعمله العلمي ينقدم وكأنه جزء شاذ ناشز يخترق المألوف من حواجز الطبيعة فيطور ما حوله وينظمه تنظيما خاصا ذاتيا يرتكز هو في بؤره مركزه ويجعله خاضعا لارادته وكأنه امتداد عضوي له ينفذ من خلاله رغباته هو ، يجمع في ذهنه تراكمات كشوف الاخرين العقليه بالدراسة والتوجيه المعد له كفرد في المدرسة والمختبر بينما يبقى وجوده السلوكي والمجتمعي الاخلاقي كامتداد تاريخي يخضع للصيرورة البطيئة التي تقود المجتمع معا كوحدة مترابطة لها درجة محدودة من السرعة بعيدة كل البعد عن روح الطفرة ورغبة المغامر التي ترافق العقل في العلم الطبيعي ،

واخيرا لا بد من التأكيد في ان الانسجام المجتمعي الذي يتصف بالحضارة يأتي دائما نتيجة للتناغم التام بين طريقة التعامل ووسائله بين افراد المجتمع من جهة ونوازع هؤلاء الافراد وامانيهم وعقائدهم في الكون ومعنى وجودهم من جهة ثانية ،

واذا كانت الحضارة العلمية الحديثة هي باطن ومضمون ، فان لها هي ايضا باطنها ومضمونها ، وهذا الباطن هو جماع القيم التي تحتويها ، فما هي القيم التي تسعى الشعوب الى اكتسابها اليوم والتي تتمثل في الحضارة العلمية الحديثة في هذا العصر : أهي وفرة وسائل العيش ، أم القوة ، أم التحكم والتسلط ، أم التحرر السياسي ، أم التكافؤ الاقتصادي ، أم العدالة الاجتماعية ، أم لفيف من هذه أم من غيرها ؟ وما هي مراتب هذه القيم ، ودرجات صحتها او فسادها ؟ وكذلك الامر في واقعنا العربي نحن ، ان هذا الواقع ، الحضاري في جوهره ، منوط بالقيم التي يتضمنها او التي ينشدها ، فاذا كان فيه انحراف او خطأ او فساد فمرد ذلك الى نوع القيم التي يطلبها وكيفية سعيه اليها ،

وبعد ، فان الظروف التي يحياها الكاتب في هذه الايام ـ عندنا

وفي العالم اجمع ـ تعمل على توزيع اهتماماته وتفريق جهوده ، فلا يأتي الكتاب ، القائم على بحث متصل وتتبع متوفر ، الا متباطئا وئيدا • ولكن هذه الاعتبارات الاساسية التي اذا تعادلت بين كتاب وكتاب ، كان الفضل بعدها للكتاب الموحد على الابحاث المجموعة• اما اذا لم تتعادل ـ وقلما تتعادل ـ فالفضل يبقى للقيمة الذاتية التي تمثلها • ولئن لم تؤلف صورة كاملة جامعة ، فانها تدل على اتجاه في النظر ، وعلى تقدير للاشياء والاحوال ، قد يوافق عليها القارىء او لا يوافق ، ولكني آمل ان يتيقنها على كل حال وان يجد فيها تجاوبا وتقاربا •

دمشق أواخر ١٩٨١ سمير عبده

الانسان والحضارة

درج المؤرخون على وصف الحضارات جغرافيا ، باسم الحضارة الآشورية او المصرية او الصينية او الهندية او اليونانية او الرومانية او العربية او الاوروبية .. الخ ، وقد توصف وصفا فكريا فيقال . الحضارة البوذية او المسيحية أو الاحيائية او الاسلامية .. الخ ، وقد توصف كما يفعل الاجتماعيون بصفات انتاجية ، مثل حضارة جمع الثمار والحضارة الصيدية والرعوية والزراعية والتجارية والصناعية وحضارة الثورة العلمية والتكنولوجية .. الخ وهي تصنيفات متصلة في عاقبة الامر بمناهج الدراسة ، اكثر منها بحقائق موضوعية ، والحقيقة الباقية هي ان الحضارة تمثل في التحليل النهائي ، تعامل البيئة الاجتماعية مع البيئة الطبيعية لتجاوزها والتغلب عليها وتسخيرها ، ثم انعكاس هذا التفاعل على نوع ومستوى علاقات المجتمع ، فهي عملية واحدة مستمرة ، تمثل التراث البشري والمواريث الاجتماعية ، وليس هناك عنصر حضاري يختفي اختفاء تاما ، شأنه في ذلك شأن المادة ، فهي تتخذ صورا وصيغا ووظائف اخرى . كذلك فان الحضارة هي ثمرة الجهد الانساني المستمر ، وحين نقول تجاوزا ، الحضارة الاوروبية او الغربية ، في مقابل ما نسميه الحضارة الشرقية ، فنحن نتجاهل الاضافات العظيمة والجوهرية التي استمدتها الحضارة المعاصرة

من الحضارات التاريخية ، وفي مقدمها الجهد العربي في مجـــالات العلوم الطبيعية والرياضية ، اما ابتداءا ، او اضافة لما كان قائما من جهد سابق ، وحين نقول الحضارة العلمية ، ينبغي ان نذكر دور الحضارات الزراعيـــة والتجارية والصناعيـــة في تطوير الحضارة العلمية الحديثة ٠٠ الخ وهكذا ٠

وقد ابتدأت الحضارة متأخرة جدا في العالم الجديد بالمقارنة مع العالم القديم ، فمن الواضح ان السبب يرجع الى أن الانسان قد جاء الى العالم الجديد في وقت متأخر ٠ وقـــد أتى قبل اختراع القوارب ، وهذا يعني ضمنا أنه وصل العالم الجديد سيرا علـــى الاقدام عبر ممر بهرنج الذي كان متجمـــدا خلال العصر الجليدي الاخير ٠ وتشير الدلائل الجلدية الى ان هناك زمنين محتملين يمكن ان يكون الانسان القديم قد عبر فيهما مـن نتؤات اطراف العالم القديم في أقصى الشرق ـ فيما بعد سيبيريا ـ الى مجاهل الاسكا الغربية الصخرية القاحلة في العالم الجديد ٠ وتنحصر الفترة الاولى بين سنة ٢٨٠٠٠ ق٠م و ٢٣٠٠٠ ق٠م ، وتنحصر الثانية بين سنـــة ١٤٠٠٠ وسنة ١٠٠٠٠ (ق٠م٠ اذ أنه بعد ذلك رفع الفيضان الذي حدث من انصهار الثلوج ، في نهاية العصر الجليدي الاخير ، مستوى مياه البحر مرة أخرى عدة مئات من الاقدام موصدا بذلك الباب علـــى سكان العالم الجديد ، وقاطعا صلتهم بالبشر في العالم القديم ٠

ان ما سبق يعني ان الانسان قدم من آسيا الى أمريكا قبـــل مدة لا تقل عن عشرة الاف عام ولا تزيد عن ثلاثين ألف عام ، وليس بالضرورة أن يكون الناس قد أتوا دفعة واحدة ٠ فثمة دلائل في المكتشفات الاثرية (مثل بعض الادوات والمواقع القديمة) تشير الى ورود تيارين ثقافيين مختلفين ٠ ولكن أكثر ما يقنع دليـــل بيولوجي عميق غير مباشر ولكنه مقنع لا يمكن الا ان نفسره بأنه

يشير الى أن الانســـان قد أتى الى أمريكـــا في هجرتين صغيرتين ومتعاقبتين ٠

والتاريخ برأي العلماء يبدأ حين يجد الناس في التفكير بانقضاء الزمن ، ليس بمعايير السياقات الطبيعية ـ دورة الفصول ، أمـد الحياة البشرية ، وانما بوصفه سلسلة من الاحداث المحددة التـي ينخرط الناس فيها ، ويؤثرون فيها ، بصورة واعية ٠ ان التاريخ بكلمات بوركهاردت Burckhardt هو (انقطاع مع الطبيعـة يحدثه استيقاظ الوعي) التاريخ هو النضال المديد للانسان ـ عبر استخدامه عقله ـ لكي يفهم بيئته ويفعل فيها ٠ ولكن الفتـــرة الحديثة قد وسعت النضال بطريقة ثوريه ٠ فالانسان يسعى الآن لكي يفهم ولكي يفعل ليس في بيئته فحسب ، وانما في نفســـه كذلك ٠ وقد اضاف ذلك ، اذا صح التعبير ، بعدا جديدا الى التاريخ٠ ان العصر الحالي هو اكثـــر العصور نزوعا الـــى التفكير بصورة تاريخية ٠ والانسان الحديث يعي ذاته الى درجة لم يسبق لها مثيل، وبالتالي فهو يعي التاريخ ٠ وهو يمعن النظر بحماس في الفجـر الذي أتى منه ، آملا في ان تضيء اشعاعاته الخافتة الظلمة التـي تتجه اليها ٠ وبالعكس ، فان مطامحه وقلقه بصدد الطريق المنبسط امامه يشحذ نفاذه الى ما سبق ٠ ان الماضي ، والحاضر ، والمستقبل مترابطة معا في السلسلة التاريخية المتواصلة ٠

ومع ذلك ألم نسمع كثيرا بأننا نستطيـــع ان نتعلم الشيء الكثير من التاريخ ؟ أن نتعلم مثلا كيف يجب ان نقوم بهذا العمل، أو بالاحرى ، كيف لا يحق لنا ان نقوم بذلك العمل ؟ وهل تحمـل هذه الاصالـة في الاحداث والشـــخصيات والشـــعوب والحضارات التاريخية شيئا في ذاتها بالرغـــم من عدم المقدرة على نسخهـا حرفيا ، ولكن من الممكن جعلها نموذجا مثاليا وتحقيقها بأشـكال أصيلة جديدة ؟ وهل يوحي لنا التاريخ مـــن خلال الوجوه الفريدة

التي تبرز في كل عصر وفي كل أمة عبر الاجيال ، بمعالم فكر شامل يفوق في عظمته كل شيء ؟ وهل الفكرة التي تخاطبنا من خلال كل انسان او عصر تاريخي او ابداعات حضارة بشرية ، انعكاس (لشيء) خالد في الانسان ، كما يقول ماكس شيلر ؟

ولا شك ان الطبيعة جميلة ومتنوعة ومثيره للاهتمام في كل مكان ، وهي وفيرة غنية في ضخامتها وعمقها بحيث كلفت عملا انسانيا دام آلاف السنين لدراستها وتنظيمها الى حد يمكن معه القاء نظرة معقولة عليها . فاذا اخذنا المرحلة الاولى من الخلق الطبيعي ، وهي المرحلة الدنيا لرأيناها تتألف من الذرات ، فهي أصغر جزئيات المادة ، بالشكل الذي خلقت فيه . وتتألف جميع عناصر الارض المادية من الذرات ، وحيثما لا توجد ذرات ، لا توجد مادة ملموسة أيضا ، وحيثما تتجمع ذرات كثيرة ، توجد مادة ملموسة . ونحن نعرف من هذه العناصر المادية المختلفة مائة عنصر وعنصر . ويختلف كل نوع من أنواع هذه الذرات المتسلسلة في جدولها الدوري عن النوع السابق بتركيب أكثر تعقيدا وبوزن ذري أثقل . ويشكل كل تجمع من ذرات النوع نفسه عنصرا ماديا معينا ، وهكذا يشكل نوع معين من الذرات مثلا عنصر الحديد ، ونوع اخر عنصر الكبريت ، ونوع ثالث عنصر الكربون ، ورابع عنصر الفضة ، وهكذا على التوالي . وبهذا تشكل أنواع الذرات المائة والواحد ، مائة عنصر وعنصر ، يتألف منها ومن تراكيبها المختلفة فيما بينها العالم المادي بكامله ، بما في ذلك النجوم والكواكب .

وهذه الانواع الذرية البالغ عددها ١٠١ ، تتألف كل ذرة منها من ثلاثة جسيمات ضئيلة تدعى (النيوترون) و (البروتون) والديكترون . وهذه هي أوليات العناصر المادية . والعدد المتزايد من هذه الجسيمات الضئيلة الثلاثة وتجمعاتها المتنوعة والمتزايدة في تعقيدها في الذرة هي التي تسبب وجود ١٠١ نوع من أنواع الذرة

المختلفة • ويعني هذا ان هذه المواد في أساسها على درجة كبيرة من البساطة •

وما يصعب تماما على افهامنا ، هو انه لا يجوز تسمية هذه الجسيمات الضئيلة الثلاثة باسم الجسيمات على الاطلاق • وعلى أي حال فهي تختلف تماما عن حجر يمكن أن يلتقط باليد ويلقى في كفة الميزان ، بل انها في الحقيقة تستطيع ان تتحلل الى طاقة مجردة وان تتصرف كالضوء تماما ، وهو جسم غير قابل للمس والوزن ، وهي تمتاز كذلك بصفة عجيبة ، وهي انها تزداد وزنا كلما ازدادت سرعة حركتها • ونحن لا نستطيع ادراك ذلك بما نعرفه ونستطيع ان نتخيله عن الاجسام الصلبة • وندرك هنا بوضوح ، بأن الحركة هنا تجري في أسفل حد للتكوين المادي ، أي هناك على الحدود الفاصلة ، بين الطبيعة المادية والعدم •

اما المرحلة الثانية للطبيعة ، وهي مرحلة المواد والاجسام الموجودة التي يمكن لمسها باليد ، فتستند مباشرة الى المرحلة الاولى السابقة • ولا يوجد شيء في هذه المرحلة لا يتكون عن ذرات وتجمعات ذرية (جزئيات) وتنتمي جميع الاشياء القابلة للمس ، غير الحية ، الى هذه المرحلة ، كالحديد مثلا والحجارة والماء والهواء والماس وغير ذلك مما لا يمكن حصره • وتدعى هذه المواد بالمعادن• ويمكن اختبار القوى التي تؤثر بلا انقطاع على هذه المواد ، بحيث تمثل جزء اكبر من الحوادث الطبيعية : وهنا تتحدد مهمة الفيزياء• ويمكن ايضا اختبار الصفات المادية لهذه الاشياء وبهذا تتحدد مهمة الكيمياء •

والمرحلة الثالثة ، التي تستند الى المرحلة الثانية ، هي مرحلة النبات • وهي تتكون من مواد المرحلة الثانية ، مع وجود شيء جديد يضاف الى ذلك ، وهو الحياة • فالنباتات تلتقط موادا من المرحلة الثانية ، ثم تنمو وتتكاثر وهي حساسة ، ولها شكل معين

تورثه لنسلها • ومثل هذه التطورات لا توجد في المرحلة الثالثة • والنباتات تلتقط المواد من المرحلة الثانية وتحيلها الى أشياء جديدة مختلفة تماما ، الا أن هذا النوع من الحياة ، نوع بدائي • فالنباتات لا تشعر ولا تعرف انها موجودة على الاطلاق • وأجسامها تتكون من مليارات وبلايين الخلايا الحية ، ولذا فهي ذات كنه حي •

والمرحلة الرابعة التي تقوم على المرحلة الثانية ، هي مرحلة الحيوان • فأجسامها تتألف من خلايا حية كخلايا المرحلة الثالثة • وهي تحتاج لغذائهـــا مواد لا يمكن ان تحضرها ســـوى النباتات الخضراء • وهي تملك نفس الحياة الجسمية النمائية كالنبـــات • ولكنها تملك شيئا جديدا يرفعها عن مرحلة النبات الى هذه المرحلة الرابعة ، فهي تملك اعضاء حسية وأعصابا ودماغا ، وهي تدرك وتشعر ، وتملك شيئا نفسيا • وبالرغم انه ما يزال بسيطا الا انه موجود لديها • وتسيطر القوانين الجديدة لهذا الحقل الحسي على حياة الحيوان ، وتخترقها وتجعلها شيئا أسمـــى وأكثر حيويـــة وحركة •

والمرحلة الخامسة القائمة على الرابعة هي مرحلة الانسان • ففيه يحيا ما يحيا بالحيوان من مواد وقوى ، أما الجديد الحاسم في الانسان ، فهو ان الانسان يفكر • فهو يستطيع ان يعى ما يدركه ويحس به ، وهو يستطيع أن يتصرف ازاء ذلك حسب قيم يؤلفها ، بحيث يحكم على الشيء الـــذي وعاه ويعيش وفقا لهذا الحكم ، وبذلك يدخل الانسان مجال الحرية • فهو يتفهم العالم ، وبالفهم يعلو عليه • وهو قد شـــق الحلقة الصماء التـــي تحيط بالنباتات الطبيعية ، ويخترق قانون جديد ، هو قانون الفكر والروح والنفس الخالدة ويسيطر على كل شيء جسمي أتى به الانسان من المرحلة السفلى ، ويحيله الى الجسد الانساني •

ويؤدي سلمنا المتدرج الى مرحلة أعلى وأسمى ، اذ تتلو ذلك

الكائنات الروحية الخالصة الفائدة للجسد ٠ ولكننا نود في بحثنا العلمي الطبيعي هذا ، أن نتوقف عند مرحلة الانسان ، فهو أمل الكائنات التي ما تزال راسية بأجسامها في العالم المادي ، ولكنه في الوقت نفسه بداية الوجود الروحي ٠

وهناك علاقة داخلية ، ابتداء من الجسيمات الثلاثة حتى الجسد الانساني الحي ٠ وكل مرحلة أسمى تحتوي على جميع المراحل السابقة في ذاتها بحيث لا يمكن أن توجد بدونها ٠ ولذا فان الطبيعة الهائلة بموادها وقواها ومجرياتها المتنوعة ، ليست فوضى هائلة كما قد يتبادر للذهن ، وانما هي نظام متدرج متطور يحتوي على مراتب واضحة جلية ٠

ولكن كل مرحلة ، تحتوى على شيء جديد بالفعل ، ولا يأتي في كل مرحلة شيء جديد فحسب ، بل ان هذا الجديد يسيطر ويخترق بقوانينه الجديدة جميع ما هو موجود ومشتق من المرحلة السابقة ٠ ففي كل مرحلة يوجد نوع من الكائنات ، يحتوي على كل الانواع القائمة في المراحل الدنيا ، والتي لا تفسر وحدها طبيعة هذا النوع ، وهذا ما يصح بوجه خاص على الانسان ٠

وكل منا يحتار في بادىء الامر ويؤخذ مشدوها بهذا التنوع الهائل في الطبيعة المحيطة بنا ٠ الا أننا لا يجوز أن نظل على هذه الحيرة ، بل يجب أن نسعى الى اجلال النظام في هذه الانطباعات الناشئة لدينا عن الطبيعة ٠ ولكي نمهد السبيل لمثل هذا النظام فقد قمنا بعرض مراحل الطبيعة حسب ما نرى ونعتقد ، بحيث نستطيع الرؤية والنظر بوضوح أكثر الآن ٠

ولقد اقترن ظهور التاريخ ببروز العقل الذي اعقب الخرافة وتسلم منها زمام الحكم ، فثبت الاشياء ومنحها هويتها ٠ واما التاريخ وقد تسلح بالعقل فقد تصدى لعالم الصيرورة يفسره ويوضح

غوامضه ، واكتشف الانسان حقيقته المستقلة وادرك مغايرته للاشياء ، فظهرت المعرفة الموضوعية وبرزت العلوم والمعارف ٠ وقام الادب على انقاض الاساطير فجردها من ثقلها الوجودي وجوها التعبدي ليجعل منها صورة من صور التعبير الانساني ووجها من أوجه الارضاء للحس الفني ٠

واقترن الانتقال من الحقيقة المباشرة للخرافة المجردة للعقل والمنطق بتغيير عام في معنى الانسان وطرأ بهذا الانتقال تحول كبير على وجوده ٠ فالانسان قد أصبح سيدا للعالم بعد ان كان عبدا له، وأصبح يغير ويبدل فيه بعد ان كان يتغير ويتبدل به ، وانتقل من محض الوجود الى الوجود الفني بالدلالة والمعنى ، ومن الوجود في العالم الى السمو على العالم ٠

يندرج الانسان العادي في العادة في جماعته ويقبل اوضاعها ويسلم بها راضيا اوكارها ، وهو ـ على رغم كثرة شكواه ـ ينتهي بالتسليم بأن هذا الوضع أحسن من غيره وان كان حظه فيه قليلا ٠ والى عهد قريب جدا كان الناس يدافعون عن النظم القائمة في بلادهم ويخدمون أصحاب السلطان فيه عن ايمان موروث بأنهم فعلا أحسن منهم وأعلى قدرا ، وان هذا هو حال الدنيا ولا سبيل الى تغييرها ، ويحفزهم على الطاعة والاستسلام اهل الفكر والعلم في جماعتهم وينضم اليهم في العادة الكهان ورجال الدين ، ويصبح هؤلاء جميعا من ادوات تثبيت النظام القائم واستمراره كما هو دون تغيير ٠

وكذلك الامر فيما يمارسه الناس في الجماعات المستقرة من حرف واعمال لكسب المعاش ، فيتوارث الزراع ابنا عن أب عن جد أساليب الزراعة وادواتها وانواع الزراعات التقليدية كما يرثون وضعهم الاجتماعي ، وكذلك الصناع في المدن والقرى يتوارثون صنائعهم وادواتها ووسائلها التقنية ويحضون في حياتهم على ما

وجدوا عليه آباءهم دون تفكير في تغيير ٠ وكذلك الامر مع التجـار وبقية طوائف اهل المهن ٠ ومع الزمن يصبح العمل قيدا للعـاملين وسبيلا الى تثبيت أوضاعهم في مجتمعهم علـــى ما هي عليه . حسنة كانت أم سيئة ٠ فالصانع يقبل ما يفرض عليه من الضرائب مهما كانت باهظة لانه لا يستطيع ترك دكانه او مصنعه لانه رزقه مهما بلغ هذا الرزق من الضآلة ، وهو في العادة يكون متزوجا مثقلا بالعيال ، فتكون عائلته من دوافع قبوله للظلم وتسليمه بـه ، ويصبح أبعد شيء عليه ان يفكر في ثورة او اعتراض خوفا علـى البيت والاهل والدكان ومورد الرزق ٠ وبدلا من ان يفكـر في تغيير النظام يبحث عن وسائل احتماله والتعايش معه واحتمال متاعبه والتخفف من اعبائه مثل سرقة عملائه ليزيد دخله ليستطيع دفع الضرائب العالية ، وغش البضائع التي يبيعهم اياها ، وشيئـا فشيئا تصبح السرقة والغش جزءا من النظام الفاسد القائم لانها وسيلة من وسائل الحماية من شروره ، أو هي في نفس الوقت وسيلة للمحافظة عليه بدلا من الثورة عليه وهدمه ٠

ان المحافظة على الموجود والحرص على بقائه خوفا من تغيير لا تحمد عقباه هي التي تدخل بالامم في مراحل الجمود والركـود ٠ ومن سنن الحياة ان الذي لا يتقدم يتأخر من تلقاء نفسه ، وشيئا فشيئا تسوء حالة المجتمع كله وينحط مستوى كل شيء فيه بمرور السنين بل بتعاقب القرون احيانا فيظل المجتمع بكل ما فيه ينحدر كسفينة انهكتها الحمولة وتسرب الماء اليها من خلال الخشب المشبع بالماء ، فمضت تهبط شيئا فشيئا وحركتها تزداد بطئا مع الهدوء المستمر حتى تستقر على وضع ما وسط ماء راكد آسن وتمضـي على ذلك القـرون ٠

ويوجد اليوم في رأي المؤرخين خمس فصائل مــن الحضارات الباقيـة وهــي :

١ ـ الحضارة الغربية الاوروبية المسيحية (بفرعها) ٠

٢ ـ الحضارة الاوروبية الشرقية المسيحية الارثوذكسية (روسيا وجنوب شرق اوروبا) ٠

٣ ـ الحضارة الاسلامية وموطنها الشريط الصحراوي المداري الذي يبدأ عند المحيط الاطلسي ويستمر الى سور الصين ويشمل مناطق استوائية واسعة ٠

٤ ـ الحضارة الهندية في شبه القارة الهندية ومعظمها استوائي ٠

٥ ـ الحضارة الشرقية القصوى التي تقوم في وسط الشرق الاقصى الاسيوي المعتدل وجنوب شرق آسيا الاستوائي ٠

وهم يستعملون لفظ حضارة في هذا التقسيم ، والمراد جماعة متحضرة من طراز خاص بها ، لان الحضارة لا تقوم بغير جماعة ، والجماعة الانسانية لا تقوم بغير حضارة ٠ فالجماعة والحضارة عندهم مترابطتان بل مترادفتان ٠ والحضارة العلمية الحديثة هي الصورة الاخيرة ـ والى يومنا هذا ـ التي وصل اليها تطور حضاري بعيد ٠ فتحت حضارة الغرب الراهنة نجد حضارة العصور الوسطى، وتحت هذه نجد الحضارة الرومانية ، وتحت هذه نجد الحضارة الاغريقية ، وتحتها حضارة مصر القديمة : طبقات بعضها فوق بعض ٠

ولقد ضرب ارنولد توينبي أمثلة كثيرة على الغزو اللاحضاري لاي حضارة في طريقها الى الزوال وقال (ان الدولة العالمية التي أنشأها ووضع هندستها بناة الدول هؤلاء يكونون في الغالب عسكريين والعسكريون دائما معرضون للغزو الحضاري فيما يتصل بآلة الحرب ، فهم في حالات كثيرة جدا يأخذون عن اعدائهم ممن هم اقل منهم حضارة ادوات واساليب عسكرية يرون فيها نفعا لهم ،

ولهذا فاننا سنلتمس امثلة الغزو اللاحضاري في الميدان العسكري ، فالرومان مثلا فيما يقول بوليبوس تخلوا عن عدة الخيل وسرجها التي درجوا على استعمالها واستعملوا بدلها سرج الخيل التي كانت عند الاغريق الذين استولى الرومان على بلادهم ، وامراء طيبة الذين انشأوا الدولة الحديثة في مصر اخذوا عن الهكسوس البدو الحصان والعجلة الحربية ، والاتراك العثمانيون اخذوا عن اهل الغرب الذين كانوا يغزون بلادهم الاسلحة الغربية ، وعندما انقلبت الاية واخذ الغرب يتقدم في بلاد الدولة العثمانية اخذ الغربيون عن الاتراك فكرة انشاء فرق عسكرية مدربة تدريبا دقيقا وطويلا وكاملا ، وكان الاتراك اول من ابتكر هذا السلاح الهام في التاريخ العسكري) .

ثم يقول : (ولكن تلك (الاستعارات) من أشياء اعداء الجماعة ممن هم اقل منها حضارة لا تقتصر على الميدان العسكري، بل تتخطاه الى شتى مناحي الحضارة فيحدثنا هيرودوت بأن الفرس الذين كانوا يرون انفسهم اعلى حضارة من غيرهم من الامم اخذوا عن الميدين ملابسهم وازياءهم ، واخذوا عن اليونان الكثير من الرذائل المتعلقة بالجنس ، ويحدثنا هيرودوت نفسه ان بحارة الاغريق الذين كانوا يرون انفسهم سادة البحار وشطآنها اخذوا عن اهل هذه الشواطىء عوائد وممارسات لا تناسب مستواهم ونشروها بين اهلهم في المدن الاغريقية ، اما نحن - يريد الاوروبيين المعاصرين - فقد اخذنا عن الهنود الحمر الذين ابدنا معظمهم تدخين التبغ واخذنا عن الشرق شرب القهوة وشرب الشاي ولعب الصوالجة البولو ، وقد أخذ الغرب هذه اللعبة عن المسلمين في الهند ، ولبس البيجاما عن اهل الصين وجنوب آسيا ، واخذنا حمامات البخار عن الاتراك ، واخذنا موسيقى الجاز عن الافريقيين الذين استعبدناهم) .

ومما لا شك فيه ان التقاء حضارتين يولد صدمات ومآسي : ولا سيما عندما تكون ثقافة البلـــد الاقوى ذات خصائص تجذب الناس قبل التجربة وتستهويهم تبنيها • فقد تسبب الثقافـــة الجديدة مـــركبات نقص وبعض الاضطرابات المرضية الاخرى • وكان خبراء كثيرون يرون فيما مضى أن هذه الظاهرة أمر مرغوب فيه ، فقد كانوا يرون ان غاية التنمية تقتضي تدمير الحضـــارات القائمة واعادة بناء مجتمع جديد على أساس المثل العليا في العالم الغربي • ومن المسلم به اليوم عموما انه ينبغي ان يكون هنـاك اقتباس متبادل • وقد أثبت لنا اليابانيون والصينيون الى حد ما ، أنه كثيرا جدا ما يكون من المفيد الحفاظ على القسط الاكبر مـن القيم الموجودة من اجل تعديل واصـــلاح التقنيات والتكنولوجيات الجديدة ، وكذلك المؤسسات ، وذلك من اجل ادخالهـا في الاطـار الموروث • ويبدو اليوم ان كل مجتمع يوفق الى بلوغ التحديث يجد طريقه الخاص نحو التصنيع ، ثم يجد بعدئذ المراحل التي عليه ان يجتازها الى مرحلة ما بعد التصنيع • وعندئذ تكون هذه العملية مماثلة تماما للمثل العليا المشتركة بين الاديان الاسيوية التي مـن تعاليمها (ان هنالك اكثر من جبل للوصول الى الله وفي كل جبـل عــدة طرق) •

ان الحضارة ــ اية حضارة ــ هي ابدا في خطر • ثمـة اخطار تنزل بها من الخارج وثمة اخطار أشد هولا تنتابها من الداخل • ولذا يترتب على ابنائهـــا ان يكونوا دائمـــا يقظين حذرين • ان الحضارات تنتحر ولا تقتل • وانتحارها ليس حدثا فردا تنزلـــه بنفسها ، وانما هو هبوط بطيء او سريع في همتها ، وفتـــور في سعيها ، وتراخ في فاعليتها • ومرد هذا الهبوط في جهدها ونتاجها انما هو الى فقدانها فضائلها التي كانت مبعث حضارتها ومجدها• فلقد كان لاســـلافنا في دور عزهـــم فضائل الايمان ، والاقدام ، والتسامح ، والتواضع ، والجد في سبيل الحقيقة ، ونشدان العدل ،

ومحاسبة النفس والاصغاء الى صوت الضمير · ولا حاجة للاتيان بالادلة من سير القادة والعامة ، ومن اخلاق الحاكمين والمحكومين ، ومن مساعي العلماء والحكماء وسواهـــم من بناة تلك الحضارة ، المشهورين منهم والمغمورين · فهذه الادلة كثيرة معروفة تنطق بها كتب التاريخ ؛ بل تنطق بها تلك الحضارة ذاتها ، التي لا يزال تراثها الباقي أبرز عنوان لتلك الفضائل · ثم جاءت عصور ضعفت فيها هذه الفضائل، ففتر الايمان، واستولت على النفوس العصبيات والمصالح والاطماع ، وقعدت الهمة عن ارتياد الآفاق : آفاق الطبيعة وافاق العقل ، وتسلط اللفظ على المعنـــى والحرف علـى الروح ، وغلب التحكم على التسامح والتكبر والتجبر على التواضع ، وخفت صوت الضمير وخفت محاسبـــة النفس ، عندها ـ عندما عجزت البصيرة عن رؤية التحديات الجليلة ، والتهى الافراد والجماعـات بالتحديات الوضيعة ـ ضؤل السعي ونفرق ، فذبلت زهور الحضارة وجفت ثمارها ، ودخلت في طور الركود والانحطاط ·

ان الحضارة لا تموت ولكنها تهاجر من بلد الى بلد ، فهي تغير مسكنها وملبسها ، ولكنها تظل حية · وموت احدى الحضارات كموت أحد الافراد يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى ·

الانسان والحضارة العلمية الحديثة

من ينظر منا الى عالم الغد يراه سيختلف عن عالم اليوم ، واشكال الحياة ونظمها في تحول وتبدل · وقد وضح لنا في وطننا العربي ان ما تعودناه وجرينا عليه في العقود الاولى من هذا القرن لم يكن مجديا لمجابهة التطورات التي حدثت في أواسطه ، وكذلك ان ما يوافق عقدنا التاسع هذا لن يكون كافيا للعيش والظفر في العقد العاشر · وليس الزمن مجرد مرور سنوات · ليس له طوله فحسب ، بل ان له عرضه وعمقه ايضا · ليس من الضروري ان يتساوى عام وعام ، وعقد وعقد ، وقرن وقرن · بل ان صفة كل من هذه وقيمته تتوقفان على زخوره وغناه بالاحداث والتطورات · ومن الراجح ان السنوات العشر او العشرين القادمة لن تجد لها مثيلا في الماضي ، لان التطورات التي ستشحن بها ستأتي أشد زخما وأوسع دائرة من سابقاتها ، بفعل اندفاع العلم النافذ الى اصغر جزئيات المادة والمنطق الى اجواء الفضاء الواسعة ، ونتيجة التهاب الآمال والمطامح والاهواء البشرية ·

وتقاس كل حضارة من الحضارات ، بل كل حال من احوال الشعوب ، بنوع الحيوية العقلية والصفات الخلقية التي يتميز بها الافراد ويتسم بها الشعب او الحضارة كمجموع · ولعل هذا اليوم الخطير الذي نعيشه لا يحتاج الى شيء حاجته الى مثل هذه الحيوية

والصفاء • فبالعقل الناشط نفعل فعلا حقيقيا نافذا في الطبيعة وفي مجتمعنا وفي انفسنا ، وبالخلق والضمير نوجه هذا العقل الى الخير والبناء ، بل ان العقل هو في جوهره خلق • فاذا حصل هذا الخلق لاي مجتمع من المجتمعات او وطن من الاوطان ، فلا تخف عندها على سلامته ، ولا تخش ان تزعزعه الزعازع او ان يذهب ضحية طمع خارجي او تناحر داخلي •

وعلى الانسان ان يكون متأصلا في مجتمع ما ليتمكن من اكتناه مشاكله ، ولكن عليه ان يكون في نفس الوقت قادرا على الانفصال عنه لكي يراه غريبا كسائر المجتمعات • وعلى هذا تقوم بصورة اساسية نظرة علم الاجتماع الى الحياة • فأنت غريب شاذ ولكني لست أقل غرابة ولا شذوذا منك • ولكي يدرك الانسان هذه الغرابة المتبادلة بين مجتمعين يعتبر كل واحد منهما نفسه كحقيقة واضحة ، عليه ان يكون اولا متأصلا في مجتمعه وقادرا في نفس الوقت على الانعتاق منه •

والحضارة العلمية الحديثة تختلف جذريا عن اي من الحضارات التي سبقتها اختلافها عن الحضارة الغربية (الليبرالية) رغم انها نشأت عنها وعن جوها ومناخها •• ولعل اهم مظاهر اختلافها كونها عالمية غير مرتبطة ببيئة محددة او بوطن او بأمة • وكذلك كونها لا تتبع الدورة الحيوية في الحضارات السابقة •• فهي حضارة الانسان شئنا أم أبينا منذ ان نشأت والى ان يشاء الله • وهناك اختلاف آخر هو انها لم تنشأ برفق وتنمو وتزدهر ، بل لعلها في طبيعتها اقرب الى الثورة المتضاعفة منها الى الوليد النامي •• وهي بذلك ليست حضارة تؤخذ او تترك دون ان يؤثر ذلك في المجتمع الانساني ، فمثلا عاشت شعوب كثيرة دون ان تتأثر او تسمع بحضارة الصين القديمة او الهند او الانكار ولم يغيرها ذلك كثيرا •

اما الحضارة العلمية الحديثة فلا مجال للهرب من تأثيرها ولو حاول مجتمع ما التقوقع واعتزال العالم ‥ اذ ان موجات آثارها نتخطى الحدود فاذا بالمتقوقع المعتزل يجد نفسه في مواجهتها ومواجهة اثارها ونتاجانها ‥ وقلما يكون مثل هذا الموقف في مصلحته ، بل لعله يمثل تهديدا خطيرا لكيانه وبقائه ٠

وهناك كثيرون منا ، حتى من الذين نعتبرهم مفكرين لا يقدرون ضخامة الثورة العلمية التكنولوجية حق قدرها ، ولا يتصورون انه لا يوجد اليوم أي عامل له من الاثر ما يقارب أثر العلم في تغيير أسس حياتنا ومعالمها ٠ فالعلم ونتاجه التكنولوجي يؤثران في تفكيرنا واساليبنا ويقرران اقتصادنا ويسيطران على صناعاتنا ويؤثران في صحتنا ورفاهنا ويغيران علاقاتنا بالدول الاجنبية ويفرضان ظروف السلم والحرب ، لا بل ان كل من وما يتنفس يتأثر بهما ولا يمكن ان يبقى بعيدا عن التفاعل بهما ‥ وفوق ذلك يمكننا القول انه حتى الجماد يتأثر بهما ويغيران فيه بشكل او بآخر ‥ وكم من جبل احالته التكنولوجيا بعد ان اكتشف العلم فيه معدنا الى سهل منبسط او حفرة عميقة وغير ذلك كثير ٠

اننا عندما نضع كلمة (الحضارة) في سياق كلامنا عن تاريخ فترة من فترات التاريخ فاننا نعني انها صفة للانسان بوجه عام ٠ وهي التي تميز مجتمع الانسان من مجتمع الحيوان ، فليس في وسعنا ان نذهب الى ما ذهب اليه بعض الكتاب ، الذين أضفوا على الحضارة معنى عظيم الاتساع ٠ فقالوا ان في وسعنا ان نطلق على سلوك بعض انواع المجموعات الحيوانية اسم الحضارة ، وانما الاصح ان يقال ان ظاهرة الحضارة لا تتمثل الا في المجال البشري ، وانها في ذلك المجال ظاهرة عامة ، أعني ظاهرة لا يخلو منها أي مجتمع بشري ٠

ويعرف علماء الانثروبولوجيا الحضارة تعريفات عدة اشهرها:

أ ـ تعريف السير ادوارد تايلور **Sir Edward Tylor**
(الحضارة او المدنية هي ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعلومات والمعتقدات والفنون والقيم الاخلاقية والقوانين والتقاليد وأية امكانيات او عادات يكتسبها الانسان عضوا في مجتمع ما) ٠

ب ـ تعريف رالف بدنجتون **Ralph Piddington** (ان حضارة شعب من الشعوب هي مجموعة الادوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشعب اشباع حاجاته الحيوية والاجتماعية ويكيف نفسه لبيئته) ٠

والصعوبة الحقيقية في هذا الموضوع تتمثل في ادراك العلاقة بين الحضارة **Culture** والمدنية **Civilization** فآراء المفكرين في هذا الموضوع قد تباينت أشد التباين ، فذهب بعضهم الى ان الحضارة تتميز عن المدنية تميز البسيط عن المقعد ٠ وهذا الرأي يمثل مذهب علماء (الانثروبولوجيا) الذين اهتموا بدراسة حضارات المجتمعات البسيطة بوجه خاص ٠ وذهب بعضهم الاخر الى ان المدنية هي الابسط ، اذ ان المدنية تتعلق بالظواهر المادية في حياة المجتمع على الاخص ٠ أما الحضارة فهي الظواهر الثقافية والمعنوية في هذه الحياة وذهب فريق اخير الى ان اللفظين مترادفان او على الاقل يقترب معنى كل منهما من معنى الاخر ٠ وانه لا سبيل الى وضع حد فاصل بين المجالين ـ وهذا الرأي هو ما يرجح في النهاية ٠

واكثر التفرقات بين الحضارة والمدنية شيوعا ، تلك التي تربط المدنية بالاوجه العلمية والمادية لحياة المجتمع ، بينما الحضارة في نظرها هي المثل السائدة في ذلك المجتمع ، والتي تجمع بين افراد المجتمع كله في وحدة معنوية واحدة ، فيحس كل منهم بأنه يشارك الباقين افكارهم ومشاعرهم ، وبأن حياته يجمعها بحياتهم تيار واحد ٠ ونقول ان هذا اكثر التفرقات شيوعا ، اذ اننا

نستخدمها اليوم كثيرا حين نقول ـ مثلا ـ ان الشعوب الاوروبية ذات حضارة عريقة • اما الشعوب الامريكية فذات مدنية رفيعة ، ولكنها تفتقر الى الحضارة العميقة ـ ونعني بذلك عمق الجذور الثقافية والمعنوية التي يتميز بها الاولون وقصر عهد الاخرين بالثقافة الروحية العميقة ، في الوقت الذي يتميزون فيه بتقدم مادي وآلي كبير •

على ان هذه التفرقة المألوفة ليست حديثة العهد • فالفيلسوف يقترب منها الى حد كبير ، حين يؤكد ان الاخلاقية ضرورية للحضارة ، ونعني بذلك الاخلاقية من حيث هي حالة باطنية ، تطبع الحضارة بالطابع الباطن ايضا ، في مقابل المدنية التي هي أكثر تعلقا بالمظاهر الخارجية للسلوك •

وللحضارة ، كما لا يخفى ، مجال عظيم الاتساع : فهي تشتمل على الاوجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية والعلمية والادبية والدينية من نشاط الانسان • أي ان لها معنى جامعا يضم في داخله مختلف الثقافات والدراسات التي يمكن أن يقوم بها الذهن البشري • فالتاريخ السياسي بمعناه الضيق لا يضم الا وجها واحدا من الاوجه المتعددة التي تنطوي عليها الحضارة • ومن هنا ظل المؤرخون يتجاهلون دراسة حضارة المجتمعات البشرية طويلا ، مكتفين بما درجوا عليه من سياسة للتاريخ فحسب •

وتبدو الثورة التقدمية التي نعيشها في الشكل المتغير للعالم• فقد امتازت حقبة القرنين الخامس عشر والسادس عشر العظيمة، التي انهار فيها عالم القرون الوسطى لتوضع أسس العالم الحديث ، باكتشاف قارات جديدة وبانتقال مركز الثقل العالمي من شواطىء المتوسط الى شواطىء الاطلسي • بل ان الخضة الاقل شأنا التي تمثلت في الثورة الفرنسية كانت لها نتائجها الجغرافية

حيث ان العالم الجديد لعب دورا ما في اعادة التوازن الى العالم القديم • مع ذلك فالتحولات التي احدثتها ثورة القرن العشرين اكثر شمولا بكثير من كل ما حدث منذ القرن السادس عشر • وبعد ما يقارب ٤٠٠ سنة فان مركز الثقل العالمي ابتعد بشكل قاطع عن اوروبا الغربية • ان اوروبا الغربية ، ومعها الاجزاء النائية من العالم الناطق بالانكليزية ، قد اصبحت ملحقا لقارة امريكا الشمالية ، او اذا اردت ، كتلة تشكل الولايات المتحدة مصدر الطاقة وبرج القيادة بالنسبة لها • وليس هذا التحول الوحيد وربما الاكثر مغزى • ليس مؤكدا ابدا ان مركز الثقل العالمي سوف يستقر ، او انه سوف يظل طويلا ، في العالم الناطق بالانكليزية وملحقه الغرب أوروبي • بالعكس يبدو ان الكتلة البرية العظيمة التي تشمل اوروبا الشرقية وآسيا ، وامتداداتها الى افريقيا ، هي التي تقرر مسار الشؤون العالمية • ان تعبير (الشرق الذي لا يتبدلّ) تحولّ الى تعبير بال ومبتذل •

ذلك ان الحضارة تؤثر تأثيرا هائلا على سلوك الافراد والجماعات من الوجهة الاجتماعية والنفسية ، مثلما تتأثر هي بهذا السلوك • ولنوضح هذه الصفة الفريدة للحضارة بالامثلة : فالحضارة تؤثر على العالم الطبيعي ذاته ، اذ ان الانسان يغير منْ شكل العالم الطبيعي ذاته على الدوام بما يحضره من قنوات وما يبنيه من سدود وخزانات ، وما يقتلعه من الغابات الخ •• كذلكَ تؤثر الحضارة على المجال النفسي تأثيرا واضحا : فمنَ الحقائقَ المعروفة ان كثيرا من الامراض النفسية والعصبية التي تنتاب الانسان في العصر الحديث ، ترجع الى شدة التوتر الذي يعانيه الانسان في حضارة علمية واقعية تقتضي منه انتباها الى كل التفاصيل الدقيقة في حياته • وفي وسعنا ان نأتي لهذه الظاهرة بمثلْ واضح : فكلنا قد لحظ بلا شك سلوك الريفي الذي يأتي الى المدينة للمرة الاولى • انه يبدو غير قادر على التنبه الىْ ما حوله •

وقد تهدد حياته بالاخطار وهو يعبر الطرقات المزدحمة بالسيارات السريعة ، دون ان يستطيع تجنبها او التنبه اليها • مثل هـذا السلوك ليس صادرا عن قصور طبيعي فيه ، وانما مصدره مـا تتميز به حياة المدنية من ايقاع سريع متلاحق ، يقتضي تركيـزا وانتباها دائما بقيادة سكانها ، ويصبح جزءا من تكوينهم النفسي، بعكس الحال في الريف حيث تسير الحياة في ايقاع بطيء متجانس، لا يشحذ القدرة الانتباهية ، ولا يقتضي تركيـزا متصلا للملكات الذهنية • وهكذا تؤثر الحضارة في المجال النفسي بدوره ، مثلما تتأثر هي به ، أي ان الحضـارة تتميـز بأنها تنفرد دون سائر العلوم بأن لها مع بقية المجالات الادنى منها علاقة تأثير متبادل ، لا تأثيرا من الادنى الى الاعلى فحسب •

وتتمثل كيفية تقدير الحضارة في امرين : اولهما اننا لكـي نقدر الحضارة ينبغي علينا ان نلم الماما كبيرا بظواهر تنتمي الى مجالات مختلفة كل الاختلاف ، وان نعمل على تحقيق التوازن بين هذه الظواهر المختلفة •

والحق ان تحقيق هذا التوازن أمر يصعب الوصول اليه ، ان لم يكن مستحيـلا : فلنفترض اننـا بازاء مرحلتين من مراحـل الحضارة ، تتميز احداهما بتفوق في ميدان الفكر والعلم النظري ، وتخلف في ميدان التطبيق العملي لهذه المعلومات النظرية • وتتميز الاخرى بعكس ذلك ، أي بتفوقها في النواحي العملية على النظرية، فكيف نصدر حكمنا على هاتين المرحلتين ، وكيف نفاضل بينهما ؟ لا شك انه من الضروري في هذه الحالة ان نتأمل مختلف الظواهر الحضارية في مجموعها على نحو تركيبي ، ولكننا سنضطر عندئذ الى تغليب نواح معينة على الاخرى ، وهنا قد يختلف الباحثون فيما بينهم اختلافا شديدا : فيؤكد بعضهم مثلا ان تفوق اليونان في الميدان النظري جعل مرحلتهـم الحضارية أرقى من المرحلـة

المصرية القديمة • بينما يؤكد البعض الاخر ان مستوى الفنـون العملية الذي بلغته حضارة قدماء المصريين ، وخاصة اذا صاحبه ادراك لتقدمهم الزمنـي على اليونان يجعلنا نصـدر حكمنا في صالحهـم •

وهذا يؤدي بنا الى الصعوبة الثانية : فنحن نتعرض علـى الدوام ، حين نصدر على مراحل الحضارة أحكاما تقويمية ، للنظر الى الامور من خلال منظورنا الخاص ، فاذا كنا مثلا في عصر تفوق فيه العلم ، فسوف نقيس كل الحضارات الاخرى بمقياس التقدم العلمي ، واذا كنا في بيئة تهتم بالعقائد الدينية اكبر الاهتمام ، فسوف تصبح التجارب الدينية والروحية في نظرنا مقباسا لتقـدم الحضـارة •

ونحن في عصرنا الحالي نرى ان التطور الصناعي هو الحقيقة الكبرى في عصرنا هذا • حقـا ان جزءا كبيرا من البشر لم تتأثر حياته بالآلة تأثرا مباشرا حتى الان ، ولا يلجأ في تنظيم حياته الى الاساليب المعقدة التي تلجأ اليها المجتمعات الصناعية ، ولكـن الذي لا شك فيه ان هذه الشعوب ذاتها قد أحست بآثار التطـور الصناعي الحديث عن طريق غير مباشر ، من حيث انها تكون جزءا من عالم أصبح ـ بفضل هـذا التقدم ذاته ـ كلا متماسكا ، او جسما عضويا واحدا لا يستطيع عضو فيه ان ينعزل عن الباقين •

والاهم من ذلك ان محور حياة المجتمعات غير الصناعية هذه انما هو السعي الى بلوغ مرتبة التقدم التي بلغتها المجتمعـات الصناعية الاخرى ، فالهدف الذي يدور حوله كفاح هذه المجتمعات، والامل الذي تنشده شعوبها وتتطلع الى تحقيقه ، هو ان تصـل الى تلك المكانة الرفيعة ، التي وصلت اليها شعوب اخرى عرفت كيف تقهر الطبيعة وتطوعها لخدمة الانسان ، وتبلغ في استغلالها لموارد الحياة أقصى درجة ممكنة من الايجابية •

وفي رأي كثير من المفكرين (وسنعرض لاحد هؤلاء مثلا فيما بعد) ان تقسيم العمل يحط من قدر الشخصية الانسانية ، وان الانسان كان في العهود السابقة على عهد التخصص المفرط هذا يكتفي بعمله الخاص ، أو بعمل المجموعة المحيطة به مباشرة ، والتي تربطه بها علاقات شخصية ، وكان تبعا لذلك مستقلا عن غيره ، مكتفيا بذاته ، بينما أصبح في عصرنا الحالي مجرد جزء ضئيل من جهاز ضخم يتم به الادماج الاجتماعي ، فلا هو شاعر بذاته وبقيمة الدور الذي يؤديه ، ولا هو معتمد على نفسه ، او على مجهوده الخاص في حياته • فالانسان الحديث في حالة عبودية بالمعنى الصحيح : انه يشعر دائما بالحاجة الى الاخرين ، وبأنه عالة عليهم ، ولا يستطيع ان يتصور نفسه مجردا عن الجماعة المحيطة به • فقيمته الوحيدة انما تنحصر في كونه جزءا منهم فحسب ، وهو بدونهم لا يساوي شيئا ، وهكذا فقدت شخصيته اهم عناصرها : فقدت عنصر العمق ، واكتفت بكل ما هو سطحي ، وأصبحت لا تجد نفسها الا في الخارج ، فيما حولها فحسب •

فاذا قلنا ان طبيعة الحياة في المجتمع الصناعي قد علمت الانسان فضيلة التضامن والتعاون ، كان رد هؤلاء المعترضين ان التضامن فضيلة (القطيع) • فالانسان يحتاج الى التضامن الكامل والتعاون الوثيق لانه عاجز عن ان يحقق لنفسه ، بقواه الخاصة ، شيئا • والحق ان التضامن – في رأيهم – هو بهذا المعنى دليل على العجز والقصور ، وليس فضيلة على الاطلاق • ان الافراد في مثل هذا المجتمع متشابهون ، قاصرون ، فليس امامهم الا ان يتعاونوا ، لان سطحيتهم تؤدي بهم جميعا الى السير في نفس الطريق •

لقد انطوت الروابط البشرية دوما على علاقات قوة ، غير أن الوسائل الحديثة في الانتاج ، والنشر والمواصلات الجماهيرية قد دفعت بطرق الضغط الى درجة من الفعالية لم تكن متوقعة في مطلع

القرن · لقد كان السيد الاقطاعي يتمتع بحقوق اعظم شأنا من حقوق شركة البترول ، لكن سلطته الواقعية كانت أدنى بما لا يقاس ·

وبشخص علل الحضارة العلمية الحديثة البرت شفيتزر الذي نال جائزة نوبل للسلام ، ولقي في أوساط معينة تقديرا رفعه الى مصاف القديسين فيقول :

ان الخطر الاوسع انتشارا من بين الاخطار التي جلبها التقدم المادى على المدينة ، هو ان الناس قد أصبحوا ، بفضل الانقلابات التي حدثت في ظروف حياتهم ، فاقدين للحرية بعد ان كانوا احرارا · فذلك النمط من الانسان ، الذي كان من قبل يزرع قطعته الخاصة من الارض ، قد اصبح عاملا بدير آلة في مصنع ، والصناع البدويون والتجار المستقلون قد أصبحوا موظفين ، وبذلك يفقدون تلك الحرية الاولية التي يتمتع بها الانسان الذي يعيش في بيته الخاص ، ويجد نفسه على صلة مباشرة بأمه الارض · وفضلا عن ذلك ، فانهم يفقدون ذلك الشعور العميق المتصل بالمسؤولية وهو الشعور الذي يحس به أولئك الذين يعيشون من عملهم الخاص · فأحوال وجودهم اذن ليست احوالا طبيعية ، ولا يواصلون كفاحهم في الحياة في ظل العلاقات المعتادة التي يستطيع المرء فيها ان يحسن مركزه ازاء الطبيعة او ازاء اقرانه المنافسين له ، وانما يرون انفسهم مدفوعين الى التجمع سويا ، والى خلق قوة يمكنهم بها ان يضمنوا لانفسهم احوالا أصلح في الحياة ، وهكذا يكتسبون عقلية غير الاحرار من الناس ، وهي العقلية التي لا تعود تتأمل المثل العليا بوضوح كاف ، وانما تشوه هذه المثل حتى تتمشى مع جو الصراع المحيط بها ·

ونستطيع ان نقول اننا قد أصبحنا أحرارا في ظل هذه الظروف الحديثة ، ومن جيل الى جيل ، بل من عام الى عام ، نجد لزاما

علينا أن نمضي في صراع أشق من اجل الحياة ·· لقد كتب علينا الارهاق في العمل المادي أو العقلي او كليهما معا · ولم يعد لدينا الوقت الكافي لاستجماع افكارنا او ترتيبها · ولقد أصبحنا ، في كل النواحي ، ضحايا لظروف الاعتماد على غيرنا ، وهي الظروف التي لم تعرف من قبل ابـدا بمثل هذه العموميـة والقوة · وان التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تزداد كمالا على الدوام ، لتخنقنا بقبضتها بالتدريج · والدولة بتنظيمها الذي يتزايد صرامة ، تسيطر علينا بصورة تزداد اصرارا واشتمالا · واذن فوجودنا الفردي تنحط قيمته من جميع نواحيه ، واصبح من الصعب على الانسان ، اكثر من أي وقت مضى ، ان يكون شخصية·

هذا نموذج لاحد المفكرين المشهورين يدين الحضارة العلمية الحديثة لانها تحط من قدرة الانسان ، أو تقضي على عنصر العمق في شخصيته ، او تعلى مكانة أوسـاط الناس ، وتغلب الدهماء المتازين ·

وبالطبع فان هذا النمط الفكري يشوه طبيعة الحضارة العلمية الحديثة تشويها صارخا · وهو في الحق اما مخدوع ، أو خادع ، فهو قد يكون مخدوعا لانه يتصـور امكان الرجوع الـى احوال للحياة تجاوزها الانسان في عصره الحاضر ، وتخطاها بمراحل لا يمكـن تجاهلها · وهو قد يكون خادعا لانه يشكل الانسان في حقبقـة تقدمه ، ويحمل على العصر ، فيساعد بالتالي على التستر عليه·

الجانب العقلي من الحضارة العلمية الحديثة

عندما نذكر (العقل) نريد به النشاط الذي يقوم به عضو في كيان الانسان وهو المخ · وهناك فرق بين المخ والعقل · فالمخ عضو يشترك فيه الانسان مع بقية الحيوانات والطيور والاسماك ، ولكن مخ الانسان اكبر من المخ عند غيره من الحيوان واكثر تعقيدا وخلاياه اكثر تنوعا ، وقد احتاج الانسان الى عشرات الالوف من السنين لينصقل ذهنه وترهف ملكاته ويصبح قادرا على (عقل) الاشياء أي ربطها بعضها ببعض ، وملاحظة الاشياء والظواهر واختزان نتائج هذه الملاحظات ، وعندما تنبه الانسان الى ان له (عقلا) ـ أي قدرة على ادراك الاشياء وفهمها والربط بين الظواهر بعضها ببعض ـ خطا الخطوة الاولى في طريق الحضارة ، ومن هنا يقول بعض العلماء ان العقل نفسه اول مخترعات الانسان ·

والتفكير ، اي استخدام الذهن استخداما منظما ، عملية حضارية احتاجت الى زمن طويل حتى اصبح هذا التفكير عنصرا اساسيا وفعالا في توجيه اعمال الانسان وصنع الحضارة · والعملية لا زالت مستمرة ، ولا زلنا نشهد ونحس في انفسنا ـ الصراع بين الغريزة والعقل ، والغريزة بطبيعة الحال اقوى ، لانها مركبة في الطبع ، في حين ان العقل مكتسب ، وفي مستويات الحضارة الدنيا والعليا على السواء نلاحظ كثيرا ان الغريزة تنجح في حالات كثيرة

جدا في التغلب على العقل وتذليله لرغباتها ، كما نرى في حالات الاجرام والعدوان على الناس والاموال والاعراض في حالة الافراد ، وكما نرى في ظواهر سيطرة الغريزة على أعلى مستويات العقل وهو العلم في صنع ادوات التدمير والتخريب او في الهبوط بالانسان الى مستويات الفوضى الخلقية في ارقى المجتمعات ·

ان الوجود المباشر للعقل ، ألا وهو الوعي ، ينطوي على جانبين : المعرفة والموضوعية القائمة في مواجهتها كضد سالب · ولما كان العقل ينمو في عنصر الوعي هذا ويبسط فيه لحظاته ، فهذا التقابل ينفذ في كل لحظة من هذه اللحظات ، التي تبدو عندئذ جميعها كأنها أشكال الوعي · والعلم بهذه الطريق هو علم الخبرة التي يخوضها الوعي ، علم يغدو فيه الجوهر بحركته موضوعا لذاته · ان الوعي لا يعلم ولا هو يتصور الا ما دخل خبرته ، وما يدخل هذه الخبرة الا الجوهر العقلي ، وانه ليدخلها باعتباره موضوعا لذاته · بيد أن العقل انما يغدو موضوعا لانه تلك الحركة القائمة في مغايرته نفسه ، أي في صيرورته موضوعا لذاته ، مع القضاء بعدئذ على هذه الاخروية ·

ويميز الوعي من نفسه شيئا عداه يحيل نفسه اليه ، او بالتعبير الدارج : كل شيء ماثل للوعي · والوجه المحدد من هذه الاحالة او مثول الشيء للوعي هو المعرفة · ولكنا نميز من هذا الكون لغيره كون الشيء في ذاته · فما هو قائم بنسبة الى المعرفة ، نميزه ايضا منها ونضعه على أنه قائم خارج هذه العلاقة · وهذا الجانب ، جانب كونه في ذاته ، نسميه الحقيقة · ولا يعنينا هنا أن نرى ما تضمه هذه التخصيصات ، فالمعرفة الظاهرة نتلقاها كما تعرض لنا من غير اعمال ، وانها لتعرض لنا على النحو الذي وصفناه ·

ولقد كانت القدرة على التفكير والتصور من الخصائص التي

مكنت الانسان من ان يأتي بالعجائب وان يحتفظ بكنز من التقاليد والاستعداد وهذا ما يدعى بالحضارة ٠

فانتقال الحضارة من جيل الى جيل امر يختلف اختلافا بعيدا عن الوراثة البيولوجية ٠ فالوراثة تنقلها الجينات الموجودة في الخلايا الجنسية ٠ وهذا الانتقال ينبع الخط المستقيم المباشر لسلسلة الاجيال الحية ٠ بينما يتم انتقال الحضارة عن طريق التعلم والتعليم والوصايا والتقليد ٠ ذلك لان الحضارة يمكن ان تنتقل من أي انسان الى أي انسان اخر ٠ ومعنى ذلك ان الحضارة اسرع انتقالا من الوراثة بكثير ٠ ولكن الوراثة أثبت من الحضارة ٠ ولزيادة التوضيح نقول ان الانسان ذو حالتين وراثيتين : وراثة حيوية واخرى حضارية ، في حين ان لبقية المخلوقات حالة وراثية واحدة فقط ٠ ولذلك اعتبر الانسان فريدا من نوعه من الاحياء ٠

ولا شك في ان الوراثة والحضارة ليستا مقفلتين او غارقتين في علبة مسدوده ٠ فالمقدرة على اكتساب الحضارة والاحتفاظ بها ونقلها لا يتمتع بها الا الكائن الذي يحمل المؤهلات للصفات الوراثية المتشابهة أي (الجينوتايب) البشرية والتي هي في منأى عن المؤثرات الباثولوجية بكل معنى الكلمة ٠

والنتيجة على أي حال هي ان الجينات ليس لها ان تحدد مكونات الحضارة وتفاصيلها مع انها قادرة على توليد الاستعداد لتكوين الحضارة لدى البشر ٠ وبعبارة اخرى ان جينات الانسان شرط ضروري لكنها لا تكفي لنشوء الحضارة ونموها وتوجهها ٠ ان تاريخ الانسانية ولا سيما تاريخ الحضارة ليس سلوكا بيولوجيا باعتبار انه يتبع سبلا مختلفة مع بقاء الجينات الموروثة عن الذين اقتبس منهم تلك الحضارة ٠ لقد فرض كوبينو ومن تبعه من علماء الحياة : ان كل شكل من اشكال الحضارة تحدده الوراثة لمبتكري هذه الاشكال ٠ غير ان هذا خطأ في علم الحياة وعلم

السلالات البشرية وعلم التأريخ · اذ ليس هنالك جين خاص بالامور الحضارية كطراز الفن المرغوب فيه · او الصيغ النحوية المفضلة او نظم القرابـة والعادات القبلية والمحرمات وغيرها مـن الامور الحضاريـة ·

والحقائق المتعلقة باسلوب الحياة ينظر اليها الافراد الذيـن يكونوا جزءا منها على انها اشياء مسلم بها لا تحتمل الجدل او المناقشة · ان هذه الهوة الواسعة في تحليل أوجه التشابه والتنافر في الانسان تبدأ بشكل بارز من معضـلات اربع يمكن ان تصور بهذه الاسئلة :

١ ـ ما الذي نقوله بصدد حضارة كاملة لا تنبثق من مجموعة اجزائها المختلفـة ؟

٢ ـ كيف يصبح الانسان امريكيا او روسيا او احد افراد قبيلة جوكتـاو ★ ؟

٣ ـ الـى أي مدى تتقيـد الطرازات اللاشـعورية للتفكير والعواطف والفعاليات او يكشف عنها في اللغات المختلفة ؟

٤ ـ هل القيم الانسانية كافية نسبية ؟

حين يتقابل الاميركيون يتصافحون ، ولكن اليابانيين ينحني بعضهم لبعض · والقصد في الاسلوبين واحد · اما اليابانيـون المستوطنون اميركا فانهم يتصافحون (بصورة طبيعية) كما يفعل بقية الاميركان · و (الحضارة) مجموعة من الضوابط الرتيبة في السلوك ، تتحدر تاريخيا الى الشعب فتميزه من بقية الشعوب ·

★ جوكتاو Choctaw قبيلة من قبائل الهنود الحمر تعيش على الزراعة في المنطقة الوسطى لحوض نهر المسيسبي في اميركا الشمالية .

والحضارات مخازن لتجارب الجماعات البشرية ٠ ونكاد تكون كل مساهمة الانثروبولوجي في الصرح العام للحياة العقلية متأتية من هذه الفكرة التي توضح الكثير من الغموض الذي يكتنف سلوك الانسان ، كما توضح فكرة الجاذبية الكثير من الحقائق في مجال الدراسات الطبيعية ٠ فالكثير مما نفعله لا يمكن ان يفهم في حدود علم الحياة او في نطاق الاوضاع التي نجد انفسنا فيها في لحظة ما ، ولكنه يفهم حين ننظر الى المخططات التي تقدمها لنا حضاراتنا ٠

والحضارات كيانات كلية يتعلق كل جزء فيها بشكل من الاشكال بالاجزاء الاخرى كافة ٠ فان المعضل في دراسة الحضارة ، لذا ، هو معضل ايجاد نقطة الدخول في دراسة دائرة ٠ فان انت بدأت دراستك من السحر او من تبادل البضائع او من الزخرفة فعليك ان تنتهي الى المكان الذي بدأت منه عينه اذا انت تعقبت المعلومات العلمية الى كل اتجاه تقودك اليه ٠ فلكل حضارة كيان ومحتوى ٠ فلو لجأ الدارس الى مجرد ذكر العناصر الحضارية منفصلة في قائمة ، مهما كان ذلك العمل دقيقا ، فانه لن يحصل على فائدة تفضل فائدة دليل الهاتف او نشرة من نشرات الاعلان عن البضائع ٠ فعالم الانثروبولوجي ينظر الى النسيج والخيوط التي يتكون منها ذلك النسيج في وقت واحد ٠ فكل خيط من خيوط الحضارة يحصل على اهميته جزئيا من كونه جزءا في شبكة من العلاقات الاجتماعية الحضارية ٠

ان الحقيقة موطنها الفرد لا الجماعة ٠ فالجماعة لم تكن يوما على حق ٠ انما هي القطيع الذي يسير في المؤخرة والمادة الاولية التي يصنع منها التاريخ ٠ والعظيم العظيم هو الذي يسمو على الجماعة ويتخذ منها أداة للعمل فحسب ٠ وعلى قدر ما يتحرر من ربقتها يدنو بها الى الامام ويزداد شعورا بذاته ٠ وما التاريخ الا

حركة مد وجزر بين هذين القطبين · فمن وعي ذاته ملك الجماعة ، ومن ملك الجماعة صنع التاريخ ·

ويقتضي تكوين العقلية العلمية المرتجاة ، اول ما يقتضي ، قرارا صادقا في صميم نفوس قادة الرأي والعمل يسري منهم الى المجتمع ولا ينِي ينتشر حتى يصبح قرارا راسخا في صميم نفس المجتمع بكامله · ومآل هذا القرار هو ان الحقيقة هي ارفع قيمة انسانية وانفس ما يمكن ان يكتسبه مخلوق ، وانها في نهاية الامر اسلم للفرد والمجتمع من الخطأ وابقى ، وان طريق الخلاص الامينة هي طريقها ، طريق العلم والعقل ·

واذا كان اكتساب العقلية العلمية والقيام بفروضها امـــرا عسيرا في الحقل الشخصي ، فأعسر منه وابعد منالا ان تطبع هذه العقلية حياة المجتمع ، وان تغدو محور اهتمامه ومدار سياسته واساس تنظيمه · ولكنها السبيل الذي لا محيد عنه ، والعدة التي ليس لها بديل ، اذا اراد المجتمع ان يضمن لنفسه العيش او ان يكون له اثر في الحضارة وذكر في التاريخ · ولذلك كانت كل تضحية، وكل بذل هينا ، في سبيل هذه الغاية عند من يقدر خطرها ويؤمن بها ايمان قناعة واعتزام لا ايمان ارضاء واستهواء ·

والانسان المتقدم هو في ذروة عملية السيطرة على الطبيعة ، التي كانت وما تزال الضالة المنشودة منذ نشأة الحضارة الاولى في ربوعنا حتى اليوم · والانسان الواقع في المرتبة الدنيا من التخلف ما يزال في الطور البدائي من هذه العملية ، أي انه ليس محروما من الدخل اللازم للحياة الكريمة فحسب ، ولكنه محروم ايضا من ثمرات عشرة آلاف عام من الخلـــق الحضاري المتواصل · وهـذا الحرمان هو مادي وروحي معا ، لان القدرة على الخلق الحضاري وقابلية التكيف مع نتائجه ، هي من اهم معالم الطاقة الروحيـــة الخالقة في الانسان ·

وقد يكون ما كتبه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر مصداقا لما نقول ، حين كتب في مجلة الثقافة عام ١٩٣٣ يقول : في صيف سنة ١٩٢٦ نزلت على قبيلة (الخرشان) في البادية البيداء فسألت نفرا من ابنائها في جملة ما سألتهم ما قولكم في البداوة والحضارة فقالوا (البدوي شقي الدنيا والفلاح حمار الدنيا والحضري ابن الدنيا) وفي ظن - الشهبندر - ان الحضري ما صار (ابن الدنيا) الا لان الحضارة جهزته بالثقافة فاستثمـــر الارض وعرف كيف يشـــق طريقه الى بطنها فينمو من عناصرها ويرضع من خيراتها .

اننا نستطيع ان نتخيـــل ارنبا يقبل بهـــذا العالم ، أي - بالعشب والثعالب والامومة ونزوات الارانب الشهوانية - ويعرض لنا احيانا ان نقول ان الارنب ليس له (وعي) او ان الارنب لا يستطيع ان يفكر ويحاكم ، وهنا يتجلى موضوع الاختلاف . فاذا حاولنا تتبع جوهر هذه الفروق وجدنا انفسنا نسير القهقرى راجعين الى فكرة الثقافة والحضارة ، أي الى حقيقة واضحة المعالم وهي ان الارنب تعوزه وسيلة رمزية للتخاطب والتواصل . ولما كان القسط الاكبر من (تفكيرنا) ينطوي على استعمال (الرموز) والتجريد ، فالنتيجة الطبيعية التي تخرج بها من ذلك هـــي ان الارنب لا يستطيع التفكير . اما كلمات (الرموز) و (العقل) و (الفكر) و (الوعي) فاني لست بعازم على الخوض في معانيها ومدلولاتها في هـــذا المقام .

واذا كانت الثوره الاجتماعيـــة الاولى تعني انه حين اصبح بمقدور الانسان ان يستقر او بالاحرى أصبح ذلك الاستقرار ضرورة ماسة . وكان على هذا المخلوق - الذي جاب الارض وهام علـــى وجهه مليونا من السنين - ان يتخذ قراره الحاسم : هل يتوقف عن حياة البداوة المترحلة ويصبح قرويا ؟ فان ذلك واضح من الكتب المقدسة من ان الانسان دخل في مرحلة مضنية من صراع الضمير

قبل ان يتخذ قراره في هذا الشأن • واعتقد بأن المدنية تعتمد على هذا القرار • اما بالنسبة للاناس الذين لم يتخذوا ذلك القـرار الحاسم فلم يبقى منهم الا قلة علـــى قيد الحياة • فثمة قبائل بدو رحل لا تزال تعيش ردة انسانية هائلة تجوب الارض من بقعة لاخرى سعيا وراء الكلأ والماء كقبيلة البختياري في ايران وما عليك الا ان ترافق تلك القبيلة في ترحالها لتدرك بأن المدنية لا يمكن ان تنمو مع الترحال •

وقبل عشرة آلاف سنة من ميلاد المسيح كانت القبائل الرحل تتبع في مسيرها هجرة القطعان البرية الطبيعية • لكنه ليس لقطعان الماعز والغنم هجرة طبيعية • لذا استطاع الانسان تدجينها منذ عشرة آلاف سنة ، ولم يسبق هذه الحيوانات في التدجين سـوى الكلب الذي كان يتبع مخيمات الرحل • وعندما دجن الانسان تلك الحيوانات بدأ يأخذ مسؤولية الطبيعة على عاتقه ، وهكذا كان عليه ان يقود قطعان هذه الحيوانات العاجزة عديمة الحول •

واذا كانت الحضارة فاصلا نوعيا بين الانسان وسائر الاحياء ، فهي فاصل درجي بين مجتمع بشري ومجتمع بشري اخر ، حجما ومستوى ، كما وكيفا ، ومن هنا تجيء فكرة المجتمعات المتقدمة ، أي التي تملك وسائل اكثر ، وقدرة اكبـــر في التعامل مع البيئة الطبيعية وفكرة المجتمعات المتخلفة ، أو النامية التي تملك ذلك امتـلاكا •

يعلمنا علماء السلالات الانسانية بأنـــه حصـل ثلاث ثورات تكنولوجية • فالثورة الاولى حصلت في بداية حياة النوع الانساني عندما تعلم الانسان استخدام النار والادوات البسيطة ، وهـذه الثورة حصلت من مئات ملايين السنين • واطل فجر عهد ثان منذ عشرة آلاف سنة عنـــدما تعلم الانسان زراعـــة الحبوب وتدجين الحيوانات ، فكانت بداية المجتمعـــات النيوليتية أي مجتمعات

العصر الحجري وبداية المدنيات • والثورة التكنولوجية الثالثه هي التي نحن في وسطها الان •

ان عدم تنظيم النقدم التقني لمن اعظم مسائل التاريخ • فالفرق في الامكانات التقنية بين العالم القديم وعالم الامس لا يكاد يذكر • وهكذا فان رحلة قيصر من روما الى فرنسا لم تستغرق من الوقت اكثر مما استغرقته رحلة نابليون اليها • هناك عدد كبير من الاختراعات التقنية ولكن هذه الاختراعات على وفرتها لم تغير الصفات الاساسية للمجتمع البشري • فان نسبة العمال الذين يحرثون الارض واولئك الذين يعيشون في المدن لم تتغير بصورة قاطعة بين العصور القديمة والقرن السابع عشر او الثامن عشر • فدخل الرجل الثري في روما لم يكن ادنى من دخله في عصر لويس الرابع عشر • وبالعكس فان الفرق بين طريقة حياة هدا الاخير وطريقة حياة الاثرياء في العصر الحاضر لشاسعة جدا •

فالعالم والتقنية اذا لونان من ألوان النشاط متقدمان بجوهرهما • ولكن تقدم مفاعليهما كان يتفاوت تبعا للفترات التاريخية • ومن هذا التفاوت ننتج مسألتان مختلفتان : ما هي ألوان النشاط الانساني التي تفرض طبيعتها تقدما يمكن قياسه دون تقييم ؟ ومن ناحية ثانية كيف ينبغي علينا ان نفكر بسير التاريخ بمجموعه ؟

انه يمكننا ان نتكلم بالمعنى الايجابي للعبارة عن التقدم التقني عندما نحصل على مقياس كمي او عندما يصبح بامكاننا على الاقل تحديد موضوع النشاط التقني بطريقة مبهمة • اذا استطعنا ان نقول ان هدف النشاط التقني هو تهيئة اكبر مقدار من النشاط او استخدام القوى الطبيعية بطريقة مضمونة النجاح ، واستطعنا ان نحدد الغاية الوحيدة من النشاط المشار اليه ، نكون قد حددنا الهدف الوحيد للنشاط المشار اليه ، بينما ان هذه النقطة

هي نقطة الخلاف الاساسي بين الاقتصاد والتقنية ٠ فليس من الممكن تحديد موضوع وحيد او مشترك للنشاط الاقتصادي ٠

فحين نقابل بين جماعات مختلفة عن بعضها اختلافا أساسيا ربما نكون قد اخرجنا المسائل من دائرة العلم ٠ فذاك العالم مثلا بأخلاق الشعوب يقول لنا : ان مجتمعات بوروروس Bororos لا تقل كمالا من بعض النواحي عن مجتمعاتنا الحديثة ، وهو مصيب من حيث الناحية التي ينظر منها الى الموضوع ٠ فاذا كان هدف المجتمعات تحقيق اندماج الافراد في الجماعة ، فان المجتمعات البدائية من هذه الناحية تستوي مع المجتمعات الراقية ، بيد انه في وسع المجتمعات الراقية انماء نشاطات اخرى هي النشاطات العلمية والفلسفية والاقتصادية ٠ وهذه الجماعات المختلفة لا تستطيع ان تنمي بنفس القوة النشاطات المختلفة ٠ فعندما نقابل انواعا مختلفة من المجتمعات لا يمكننا ان نصدر عليها باسم العلم حكما واضحا ٠

وانه لمن التناقضات الغريبة ان تظهر نظريات بعيدة عن صفة العلم بقدر ما تزعم انها علمية ٠ لنأخذ مثلا على ذلك ، وهو اننا عندما نأخذ بتفسير للمجتمعات انطلاقا من نظم اقتصادية فهذا التفسير مقبول اذا ورد بين تفسيرات اخرى ممكنة ، وهو قراءة خاصة لبعض الحوادث ٠ اما اذا عاد بنا هذا التأويل الى ظاهرات اقتصادية وأثبت نفسه كتفسير علمي فقد بطل في نفس الوقت ان يكون كذلك لانه يخلع على الواقع الاجتماعي شكلا مبسطا لا ينطبق على حقيقته ٠ فان المجتمع في الواقع شديد التعقيد ٠ وتكون هذه النظريات والتأويلات علمية بقدر ما تقبل اختصاصاتها ٠

★ شعب نشأ في افريقيا الوسطى ٠

وبقدر ما تزعم انها صورة امينة ، أكيدة وصحيحة بصورة عامة للنظم الاجتماعية تبطل ان تكون علمية ٠

وقد تبنى مفكرو عصر الانوار وجهتي نظر يتعذر التوفيق بينهما في الظاهر ٠ فقد سعوا الى تبرير مكان الانسان في عالم الطبيعة : وهكذا اعتبرت قوانين التاريخ مساوية لقوانين الطبيعة٠ ومن جهة اخرى فانهم آمنوا بالتقدم ٠ ولكن ما هو الاساس الذي يسمح باعتبار الطبيعة تقدمية ، وبالقول انها تتقدم باستمرار نحو هدف ما ؟ لقد تصدى هيغل لهذه الصعوبة باجراء تمييز صارم بين التاريخ الذي اعتبره تقدميا والطبيعة التي تفتقد لهذه السمة وجاءت الثورة الداروينية لتزيل ، فيما بدا ، كل الاحراجات حينما اعتبرت ان التطور والتقدم متساويان : وتبين في النهاية ، ان الطبيعة تقدمية على غرار التاريخ ٠ لكن ذلك فتح الباب امام سوء تفاهم اكثر خطورة لانه اتاح الخلط بين الوراثة البيولوجية ، التي تشكل مصدر التطور ، والاكتساب الاجتماعي الذي يشكل مصدر التقدم في التاريخ ٠ وهذا التمييز مألوف وجلي ٠ ضع طفلا اوروبيا في أسرة صينية وستكون النتيجة انه سيشب ابيض اللون سوى انه ينطق بالصينية ٠ ان لون الجلد يتعلق بالوراثة البيولوجية ، واما اللغة فعبارة عن ملكة اجتماعية تنتقل عبر الدماغ البشري ٠ لقد جرى قياس التطور البيولوجي بمعيار ألوف او ملايين السنين ٠ وحسب علمنا فان الانسان لم يتعرض لاي تغير بيولوجي محسوس منذ بدأ التاريخ المكتوب : واما التقدم عبر الاكتساب فيمكن قياسه بمعيار الاجيال ٠ ان جوهر الانسان بوصفه كائنا عقلانيا هو انه يطور امكاناته عبر مراكمة تجربة الاجيال المنصرمة ٠ ان الانسان الحديث لا يملك دماغا اكبر ولا قدرة اصلية على التفكير اعظم من سلفه الذي عاش قبل ٥٠٠٠ سنة ٠ ولكن فعالية تفكيره تضاعفت مرات عدة عبر التعلم وعبر ادخال تجربة الاجيال السابقة ضمن تجربته ٠ ان عملية نقل الميزات المكتسبة ، التي لا يقبل بها

علماء البيولوجيا ، هي اساس التقدم الاجتماعي • وان التاريخ هو التقدم عبر نقل المهارات المكتسبة من جيل الى اخر •

ويعرب ارنولد اوف روغبي في خطابه الافتتاحي بوصفه استاذا ملكيا في التاريخ الحديث في اكسفورد في سنة ١٨٤١ عن اعتقاده بأن التاريخ الحديث سوف يكون اخر مرحلة في التاريخ البشري : (يبدو وكأنه يحمل علامات اكتمال الزمن ، وكأنه لن يكون ثمة تاريخ مقبل فيما بعد) •

لم يحدث ان انسانا عاقلا آمن في يوم من الايام بنوع من التقدم يسير في خط مستقيم غير متقطع من غير ان يتعرض لارتدادات وانحرافات في الاستمرارية ، وذلك الى درجة ان اكثر الارتدادات حدة ليست بالضرورة مدمرة لهذا الايمان • ومن الواضح ان هنالك فترات نكوص الى جانب التقدم • اكثر من ذلك ، فمن التهور ان التقدم الذي يعقب تراجعا ما سوف يتم من النقطة نفسها او وفق الخط نفسه • ان الحضارات الاربع او الثلاث التي تحدث عنها هيغل او ماركس ، والحضارات الاحدى والعشرين التي كتب عنها توينبي ، ونظرية دورة حياة الحضارة التي تمر عبر مراحل الصعود والانحدار والسقوط ـ ان هذه المخططات لا تعني شيئا في حد ذاتها • ولكن هذه المخططات تعبر عن واقع قابل للملاحظة مفاده ان الجهد المطلوب لدفع الحضارة الى امام يندثر في مكان اخر ، بحيث ان كل التقدم الذي نلاحظه عبر التاريخ ليس متواصلا سواء في الزمان او المكان • وبالفعل ، فاذا ما راودتني نفسي ان اضع قوانين للتاريخ فان احد هذه القوانين سوف يتضمن ان الجماعة رسمها طبقة ، او امة ، او قارة ، او حضارة ، او ما شئت ـ التي تلعب دورا رائدا في تقدم الحضارة في حقبة ما لن تلعب في الارجح دورا مماثلا في الحقبة التالية ، وذلك لانها سوف تكون اكثر اشباعا بتراثات ومصالح وايديولوجيات الحقبة السابقة من ان

تكيف نفسها مع متطلبات وشروط الحقبة الجديدة ٠ وهكذا ، من المحتمل جدا ان ما يبدو لاحدى الجماعات انه حقبة انحدار قد يبدو حقبة ولادة عملية تقدم جديدة من وجهة نظر جماعة اخرى ٠ ان التقدم لا يعني تقدما مساويا ومتزامنا للجميع ٠

ويمكن القول ان التحول في العالم الحديث الذي قام على تطور وعي الانسان لذاته قد بدأ مع ديكارت ، الذي أثبت للمرة الاولى وضعية الانسان ككائن لا يستطيع التفكير فحسب ، بل ويمكنه ان يفكر بصدد ذاته ، وان يراقب نفسه وهو في طور المراقبة ـ بحيث ان الانسان هو في الوقت نفسه الذات والموضوع بالنسبة للتفكير والمراقبة ٠ لكن هذا التطور لم يصبح جليا تماما حتى الشطر الاخير من القرن الثامن عشر ، حينما افتتح روسو اعماقا جديدة لفهم الذات ووعي الذات لدى الانسان ، واعطى الانسان منحى جديدا للنظر الى عالم الطبيعة والى الحضارة التقليدية ٠ قال توكفيل ان الثورة الفرنسية كانت تستقي وجها من (الايمان بأن ما كان مطلوبا كان استبدال مركب العادات التقليدية التي تحكم النظام الاجتماعي لذلك الزمن بقواعد ابتدائية بسيطة مستقاة من استخدام العقل الانساني ومن القانون الطبيعي) ٠

وقد تطورت العلوم الانسانية في الغرب في القرن الثامن عشر والتاسع عشر نتيجة تعجيل المسار التصنيعي وتحكم الفئات البرجوازية بمصير المجتمعات الصناعية على حساب سلطة ونفوذ الطبقات التقليدية ٠ وقد ساعدت العلوم الانسانية على استيعاب التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتقليصها مما سهل استمرار التطور التصنيعي والتكنولوجي في الدول الغربية ٠ وفي هذا المنظار فان النهج الماركسي في العلوم الانسانية لا يختلف من حيث الجوهر على المنهج الليبرالي ، فالهدف واحد يكمن في تأمين استمرار التقدم المجتمعي عن طريق توضيح مسار التطور

بتجديد طريقة عمل القوى الاجتماعية الرئيسية التي تقود التطور وطريقة تأثيرها على نظام القيم في المجتمع ★ وعلى وضع قوى الانتاج . وميزة العلوم الانسانية انها نابعة من الايمان بالتقدم المجتمعي وبضرورة التغيير من اجل تحرير طاقات المجتمع . وهي بذلك تخالف العقائد الغيبية التي تتمسك بها القوى الاجتماعية التي لا مصلحة لها في التغيير المجتمعي . ومن الجدير بالملاحظ ان العلوم الانسانية قد استعملت ايضا في الهجمة الاستعمارية الغربية على العالم . فالانثروبولوجيا والاستشراق مثلا أدبا دائما دورا هاما في بسط سلطة المستعمر على الشعوب المستعمرة . وكان الدافع في تطوير هذه العلوم مزدوجا : الدافع العلمي من حيث الميل الى اكتشاف اسرار صيرورة المجتمعات غير الغربية من جهة ، والدافع السياسي من حيث ضرورة معرفة مكونات الحياة المجتمعية للشعوب المستعمرة من اجل تسهيل السيطرة عليها من جهة اخرى .

وكان لوفرة المال ان ادى ذلك الى وفرة الرأسمال والى البحث عن اساليب للتسلية فأسرعت الفنون خطاها في طريق التقدم ، ونشأت المسارح في لندن وباريز وغيرها ، وظهر كبار الكتاب والشعراء والموسيقيون من امثال شكسبير وثرفانتس وكورني وراسين ، اي ان طبقة جديدة من اصحاب الاموال والاعمال ظهرت في تلك البلاد ، سيطرت على جانب كبير من النفوذ الاقتصادي والسياسي تبعا لذلك ، وحاطت نفسها باطار معيشي ملائم من حيث المظهر واسلوب الحياة واطار الفكر . وبعبارة اخرى ادخلت هذه الطبقة تغيرا جوهريا على شكل الحياة في الغرب الاوروبي . ولا يمكن بأي حال ان نغفل اهمية هذه الطبقة في تطور الحضارة

★ قبل ان المسيحية لم تفلح في غزو الصين لان اليسوعيين لم يفلحوا في ترجمة التوراة الى اللغة الصينية ترجمة يقبلها المتأدبون لذا سموها (لغة الشيطان) .

الاوروبية وتطور الفكر الاوروبي نفسه ، فقد كان رجالها يجنـون ارباحا طائلة جدا من التجارة مع الشرق ، ولنذكر هنا مثلا شركة الهند الشرقية وارباحها التي مكنت لها من بناء الاساطيل التجارية وغير التجارية وتحويل الهند كلها الى مستعمرة بريطانية فيما بعد، والشركات الهولندية التـــي احتكرت تجارة آسيا لمدة طويلة مـن الزمن ، وشركاتها التي فازت بنصيب ضخم من التحارة مع اميركا الشمالية وغير ذلك كثير ٠

وهذه الطبقة التي عرفت بالبرجوازية وانقسمت الى قسمين : المياسير والمساتير ، وهي بقسميها اعطت الغربي الاوروبي ومدنه وقراه وموانيه مظهر الرخاء والغنى والرفاهية الذي امتاز بها مـن ذلك الحين ، اي انها صنعت بالاشتراك مع الملوك والنبلاء وكبار رجال الدين والعسكريين واهل الفكر والفن ـ شكل الحضارة الغربية الذي تميزت به من ذلك الحين ٠

وعلى القاعدة العريضة التي ساءتها الطبقات التي ذكرناها قامت الرأسمالية والفكر الرأسمالي ، اي الفكر الذي يخدم المال واصحابه ٠ والميزة الاولى للفكر الرأسمالي هي الارتباط الشديد بينه وبين العقل والتفكير ، فالتاجر والصانع وبناء السفن ورجال المال يفكر دائما بطريقة منطقية عقلية ٠ ونادرا ما يستسلم للخيـال او يجري وراء افكار غير عمليـة ، ومن هنا كانـــت الرأسماليـــة الاوربية القوية اكبر سند للعقلانية ٠ وعلـى الرغم من كل افكار التحرر التي قال بها رحال عصر الانوار الا انهم جميعا نشأوا في بيئات برجوازية او كان انتماؤهم لهذه الظبقة هو الدي اعطاهم القوة ليقولوا ما قالوا ، والغالبية العظمى ممن ذكرناهم كانوا من المياسير او المساتير على الاقل ، وكانوا يعيشون في سعة كبيرة او صغيرة وكان تفكيرهم كله يخدم مصالح هذه الطبقة التي ذكرناها٠

ومن الممكن ان يساء فهم فكرة التقدم اذا لم نذكر انها كانت

تشق طريقها وتعمل في مواجهة مقاومة عنيفة ، وان انصارها من الاوساط كانوا بخوضون معركة عنبفة مع ركام تاريخية عسيرة الاختراق ، اكسبها مرور الزمن حق سيادة كل الناس والتحكم في مصير البشر ٠

نتيجة لذلك كله تغيرت النظرة الى معركة التاريخ والحضارة اذن بفضل اولئك النفر ، فلم نعد حركة التاريخ دائرية تنتهي حيث بدأت ونبدأ حيث تنتهي الى ما لا نهاية ، وخرجت النظرة الى الحضارة من الركود الى الحركة وآمن الناس بأنه ما دامت هناك حركة فهناك تقدم حضاري ، وان التاريخ لا يعيد نفسه ، وانه في تغير دائم ، لان صانعه وهو الانسان في تغير دائم ، وانتشرت بين المثقفين الفكرة التي تقول انه ما دام هناك اطمئنان الى ثمرة العمل - ولو نسبي - فهناك تفدم وتحسن ، وما دام هناك تقدم وتحسن فهناك رخاء او امل فيه ، وكانوا يضربون على صدق آرائهم تلك امثلة كثيرة عملية ملموسة ٠

ومن خلال هذه الافكار يعتبر فرويد الممثل العظيم الاخير لعقلانية عصر التنوير ، واول من اوضح ما في هذه النزعة من أوجه القصور ٠ وتجاسر على ان يقاطع اغاني الانتصار التي ينشدها العقل المجرد ٠ وأثبت فرويد أن العقل هو أثمن وأخص قوة تميز الانسان ، ولكنه عرضة لتأثير العواطف المشوه له ، وفهم عواطف الانسان هو وحده الذي يمكن ان يحرر عقله لاداء وظيفته على نحو سليم ٠ وكشف فرويد عن قوة العقل الانساني وضعفه على السواء وجعل من هذه الجملة : (الحقيقة هي التي ستحررك) المبدأ الهادىء في فن جديد للعلاج النفسي ٠

وظن فرويد في بادىء الامر انه لا يعني الا بأشكال معينة من المرض وعلاجها ٠ ولكنه ادرك رويدا رويدا انه توغل بعيدا الى ما وراء مجال الطب ، وانه استأنف تقليدا كان فيه علم النفس بوصفه

دراسة لروح الانسـان ـ أساسا نظريا نفس الحياة . وتحقيق السعادة ٠

واستطاع منهج (فرويد) في التحليل النفسي ان يجعل دراسة الروح دراسة دقيقة حميمة امرا ممكنا ٠ ولم يكن في (معمل) المحلل النفساني اية اجهزة او انابيب اختبار . فما كان يستطيع ان يزن او يحسب ما يعثر عليه . ولكنه كان يكتسب عن طريق الاحلام والتخيلات وتداعي المعاني ، بصيرة تنفذ الى الرغبات الدفينة وضروب القلق التي تنتاب مرضاه ٠ وفي (معمله) حيث لا يعتمد الا على الملاحظة والعقل وعلى خبرته الخاصة بوصفه كائنا انسانيا ـ اكتشف المرض العقلي لا يمكن ان يفهم بمنأى عن المشكلات الاخلاقية ، وان مريضه عليل لانه اهمل مطالب روحه . وليس المحلل النفساني لاهوتيا او فيلسوفا ؛ وهو لا يدعي الكفاءة في هذه الميادين ولكنه بوصفه طبيبا للروح يهتم بنفس المشكلات التي تهتم بها الفلسفة واللاهوت : ألا وهي روح الانسان ، وعلاجها ٠

ومن وجهة نظر المؤرخ فان لفرويد مغزى خاصا ، ولسببين ٠ الاول ، ان فرويد دق المسمار الاخير في كفن الوهم القديم القائل ان الدوافع التي يزعم الناس او يعتقدون انهم تصرفوا انطلاقا منها كافية لتفسير سلوكهم وذلك انجاز سلبي يحمل بعض الاهمية . ولو ان الزعم الايجابي لبعض المتحمسين بأن من الممكن القاء الضوء على سلوك الرجال العظام في التاريخ بوسائل التحليل النفسي ينبغي ان لا يقبل على علاته ٠ ان عملية التحليل النفسي تستند الى استجواب الشخص الذي تجري محاكمته ـ وليس بوسعك ان تستجوب شخصا ميتا ٠ ثانيا ؛ ان فرويد قد دعم عمل ماركس حينما شجع المؤرخ على ان يتمعن في نفسه وفي موقعه في التاريخ ، وفي الدوافع ـ وربما الدوافع الخفية ـ التي وجهت اختياره المحدد لاطروحة او حقبة ما ، وانتقاءه تفسيره للوقائع ، وكذلك في الخلفية

القومية والاجتماعية التـــي تحكمت بزاويـــة رؤياه ، وفي مفهوم المستقبل الذي يصوغ مفهومه للماضي · ومنـــذ كتابات ماركس وفرويد ، لم يعد للمؤرخ عذر في التفكير في نفسه كفرد متجرد يقف خارج المجتمع وخارج التاريخ ·· ان عصرنا هو عصر الوعي الذاتي - ويستطيع المؤرخ ، وينبغي له ، ان يعرف ما هو فاعل ·

ويلاحظ المراقب انه يوجد في علم النفس اليوم نهجان حديثان للبحـــث ، يتعارضـــان بعض التعارض هما نهـــج فرويد ونهج بافلـوف :

وقد كانت اهداف فرويد علاجيـــة في اساسها ، اذ كان همـه منصرفا الى ابراء الناس من صور الاضطراب العقلي غير الشديدة الخطورة · وفي اثناء محاولته هذه كون رأيا عن علة هذه المتاعب · وقد صارت نظرينه في التعلبل اهم من نظرياته في العلاج ذاتها · ولعل النظريات العامة التي مرجعها الى عمل فرويد واتباعه يمكن ان تعرض علـى نحو كالاتي : ان عنـــد الكائنات البشرية بعض الرغبات الاساسبة ، وهي عادة غير شعورية الى حد ما ، وقـد صيغت حياتنا العقلية بحيث تمنح اكبر قدر ممكن من الاشباع لهذه الرغبات · ولكن حبثما تقوم عقبات في طريق هذا الاشباع ، فان الوسائل التي تتبع للتغلب على هذه العقبات قد تشوبها الحماقة ، بمعنى انها تقصر عملها على ميدان الاوهام لا الحقائق ولا أخال المحللين النفسيين قد تعمقوا أمر التمييز بين الوهم والحقيقة ·

ولعله يصلح من الوجهة العملية ان نقول : ان (الوهم) هو ما يعتقده المريض ، و (الحقيقة) هي ما يعتقده المحلل · وليس يعترف بأحد من الناس محللا الا بعد ان يحلل · وينتظر منه على هذا النحو ان بكون من اتباع الرأي المتعارف عليه عن الحقيقة · او اذا استطاع المحللون نقل هذا الرأي بدورهم الى مرضاهم ، سادت فكرتهم في النهاية ، او كان هذا ما يرجى على الاقل · ويمكن القول

ـ دون الدخول في التفصيلات الميتافيزيقية ـ ان الحقيقة هي ما يقبل عادة من المجموع ، بينما الوهم هو ما لا يعتقده غير فرد واحد او مجموعة من الافراد .

ان المختص في علم النفس الذي نال تدريبا اساسيا في الكيمياء الحيوية يمتلك في يديه احدى الوسائل الفعالة للحقب القادمة ، فهو مثلا يدرك معنى استعمال العقاقير الحديثة في علم الطب النفساني ، والتدبيرات التي قطعت اليوم كثيرا من الشقاء او المعاناة لكثير من انواع الاضطراب العقلي بل انها في الحقيقة قد أزالت في بعض الحالات اعراض المرض بصورة تكاد تكون سحرية .

واذا كان الناس المتقدمون في السن الذين يعيشون ضمن حضارتنا الراهنة غالبا ما يتجهون الى الماضي ، اي زمن نشاطهم وقوتهم ، في حين انهم يقاومون المستقبل وكأنه يشكل خطرا عليهم، فمن المحتمل ان حضارة بأسرها ـ اذا كانت في حالة تفكك او ضعف نسبي ـ قد تتوجه نحو عصر ذهبي ماض ، بينما تنصرف الى ممارسة الحياة الراهنة بتردد وتلكؤ ★ .

★ لعلنا ما نزال نعيش محنة ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر ، محنة انتصار الفكر الكلامي على الفكر الفلسفي والعلمي . وما يزال هذا الانتصار يفشي ، بوعي وبدون وعي ، ابصارنا بالرغم من ان الفكر الحديث ، الذي حركتا عقلانيته في القرنين الثالث عشر والرابع عشر يحيا منذ القرن الخامس عشر أروع ثورة للعقل على الكلمات التي اتخذت بديلة للحقائق او الوقائع او الظواهر او القوانين او الاشياء . اننا نتغنى بالثورات واحدة بعد الاخرى بدون ان نتعرف الى هذه الثورة المنهجية الاساسية . ولذلك فاننا ما نزال منصرفين الى صناعة الكلمات عن صناعة الاشياء .

ولا يرجع ضعف الدول عندنا وزوالها او دخولها في حالة اغماء او (كوما) طويلة الى ان للدولة عمرا تتخطاه ، وان الجيل الاول من اجيال الدولة يكون شابا والثاني كهلا والثالث شيخا ، بل لان الدول لم تكن تقوم على مؤسسات بل على افراد ، وهؤلاء الافراد منقطعة صلاتهم بالامة ، واذا انقطعت صلة الجماعة الحاكمة بالامة وجمهور الناس أسرع اليها الجفاف لتوقف الحركة والاتصال بين الجانبين ، لان العلاقة بين الطبقة الحاكمة والامة هي نفس العلاقة بين الشجرة والتربة التي تنبت فيها ، فاذا اعتمد البيت الحاكم على نفسه او على فئة قليلة من اتباعه ومواليه انعزل ومواليه عن الجمهور والحياة ولم يلبث ان يجمد ويموت مكانه ·

في كل حضارة من الحضارات تحقيقات ابداعية ومكاسب ومآثر في ميادين العمل والفكر ، وفيها من جهة اخرى عيوب ونقائص اوقفتها عند حدودها ، ومنعتها من التقدم الى آفاق ابعد او التوصل الى نتائج اجل واسمى ، في كل حضارة عناصر ايجابية تمثل خير ما بلغته وحققته لنفسها وللانسانية ، وعناصر سلبية كانت مبعث تقييد وتعطيل ومصدر افساد داخلي كثيرا ما ادى بالحضارة الى التفسخ والانهيار · اما الذين ينظرون الى الحضارة بالمعنى العام الذي ألمحنا اليه فهم يكتفون بالوصف ولا يعمدون الى مقارنة هذه العناصر بعضها ببعض ومقابلتها وترتيبها في منازلها المختلفة ، سواء فيما يتعلق بحضارة معينة او بالحضارات المختلفة ·

ان العقلية المنشودة لضمان البقاء في هذا الزمن وللوقوف في وجه تفجراته هي عقلية عالمية في نطاقها ، كوكبية ، بل كونية ، في سعة مداها · فلم يعد يصح للفرد ان ينظر الى مشكلات امته من زاوية مصلحته الخاصة ، او من نافذة حيه او طائفته او عشيرته او طبقته او بلده ، بل يتوجب عليه ، اذا أراد ان يكون له رأي مسؤول او فعل منتج ، ان يضع هذه المشكلات في موضعها من

التطورات العالمية ، الظاهرة منها والخفية ، فيسعى الى ادراكها في هذا النطاق ، والى معالجتها مما ينطبق على مقتضيات هذا العصر الكوكبي ، ان لم نقل الكوني ، ومتضمانته ٠

وتفجر العلم والمعرفة ، الذي تبدو مظاهره الرائعة في اطلاق طاقة الذرة وغزو الفضاء واشباههما من الفتوحات الجبارة والخوارق الخلابة ، لا يقتصر على هذه وحدها ، بل يعم جميع الجهود الانسانية المنصرفة الى مجابهة الطبيعة وادراك الحياة ٠

وما من شك اننا نعيش اليوم في خضم ثورة علمية تكاد تفصل بين الماضي والمستقبل ، وهي تفعل في حياتنا المادية ونظمنا الاجتماعية وتفكيرنا وعقائدنا فعلا أشد نفاذا واوسع نطاقا من فعل الثورة العلمية الاولى ولعلنا لا نخطىء الصواب اذا قلنا ان هذه الثورة العلمية الثانية هي الصفة الاولى المميزة لحياتنا الحاضرة ، بل هي الحقيقة الكبرى التي يجب ان نتفهمها ونسعى الى امتلاك ناصيتها اذا اردنا ان نكون من ابناء هذا الزمان ومن بناة الزمان القادم ٠

ان الانسان في يومنا هذا لم يقترب من تحقيق اعز امانيه مثلما اقترب اليوم ٠ فكشوفنا العلمية وانجازاتنا التقنية تمكننا من أن نرى رأي العين اليوم الذي تمد فيه المائدة لكل من يشتهون الطعام ٠٠٠ اليوم الذي يؤلف فيه الجنس البشري مجتمعا واحدا ، فلا يعود يعيش في كيانات منفصلة ٠ وقد اقتضى الامر آلاف السنين حتى تفتحت ـ على هذا النحو ـ ملكات الانسان الذهنية ، وقدرته النامية على تنظيم المجتمع ، وتركيز طاقاته تركيزا هادفا ٠ وهكذا خلق الانسان عالما جديدا له قوانينه الخاصة ومصيره ٠ فاذا نظر الى ما أبدعه حق له ان يقول أن هذا الذي أبدعه شيء حسن ٠

اثارة السؤال تدعو الى الحرج ، لان الاجابة واضحة وضوحا أليما ، فبينما خلقنا أشياء رائعة ، أخفقنا في ان نجعل انفسنا

جديرين بهـــذا الجهد الخارق • وحياتنـــا حياة لا يسودها الاخاء والسعادة والقناعة ، بل تجتاحها الفوضى الروحية والضياع الذي يقترب اقترابا خطرا من حالة الجنون ، وهو جنون لا يشبه الجنون الهستيري الذي وجد في العصر الوسيط ، بل جنون شبيه بانفصام الشخصية (السكيزوفرينا) ينعدم فيه الاتصال بالواقع الباطني ، وينشق فيه الفكر على الوجدان •

ان ما يدعى توسيع العقل في ثورة القرن العشرين يحمل عواقب خاصة للمؤرخ : ذلك ان توسع العقـــل يعني ، في الجوهر ، بزوغ جماعات وطبقات وشعوب وقارات ، كانت حتى يومنا خارج التاريخ• لقد كان نزوع مؤرخي القرون الوسطى لرؤية مجتمع القرون الوسطى من منظار الدين عائدا الى الطابع الحصري لمصادرهم • وقد كـان يقال عن حق ، ولو كان دلك لا يخلو من بعض المبالغة ، ان الكنيسة المسيحية كانت (المؤسسة العقلانية الوحيدة في القرون الوسطى) واذا كانت المؤسســة العقلانية الوحيدة ، فقد كانــت المؤسسة التاريخية الوحيدة • وكانت بمفردها خاضعة لسياق تطور عقلاني يمكن للمؤرخ ان يفهمه • اما المجتمع الدنيـــوي فقد تشكل وفـق صياغة وتنظيم الكنيسة له ، ولم يكن يملك حياة عقلانية خاصة بـه • اما جمهرة الشعب فكانـت على غرار الشـــعوب السابقة في التاريخ ، في حيز الطبيعة اكثر مما كانت في حيز التاريخ • ان التاريخ الحديث يبدأ حينما تدخل مزيد من الشعوب حيز الوعي الاجتماعي والسياسي ، وتمتلك الوعي لجماعاتها بوصفها كائنات تاريخية لها ماض ومستقبل ، وتدخل كليا في التاريخ • ان الفترة التي انقضت منذ ان بدأ الوعي الاجتماعي والسياسي والتاريخي يعم ما يقارب اغلبية السكان لا تتجاوز ـ وذلــك في حفنة من البلدان المتقدمة فحسب ـ المئتي سنة • اما في يومنا فقـــد اصبح ممكنا ، وللمرة الاولى تصور عالم يتكون من شعوب دخلت ، بأبلغ معاني الكلمة ،

التاريخ واصبحت بين هموم ، لا الحاكم الاستعماري او عالم الانثروبولوجيا ، وانما المؤرخ ٠

والحضارة العلمية الحديثة تطالب العلم الانتباه المركز على التصور بما هو كذلك أي على الحدود البسيطة كالوجود في الذات وللذات ومساواة الذات نفسها وما اليها ، لان هذه الحدود حركات خالصة كان يسعنا ان نسميها نفوسا لو لم تكن طبيعتها التصورية تدل على شيء اعلى مما يحتمله هذا اللفظ ٠

فنظريات العلم يثبت بعضها بعضا ٠ ولكن العلم ، وجهاز المعرفة نفسه ، لا يزال يفتقر الى ما يثبته ٠ فالنظرية العلمية لا تثبت الا بثبوت شيء اخر ، ولا تدرك حقيقة الا بادراك حقيقة اخرى ، ولا نعرف شيئا الا بشيء اخر ، ولا نرى شيئا الا من خلال شيء اخر ٠ فالعلم قوامه هذا التداخل بين الاشياء ٠ والحقائق لا معنى لها الا بانعكاس بعضها على بعض ٠ ولكن الحقيقة النهائية، حقيقة الحقائق ، العلم في اطلاقه الذي لا انعكاس فيه ، لا يرتكز على شيء البتة ٠ وهو معلق في الهواء كريشة في مهب الريح ٠ ولا يزال الفلاسفة ينعتون الذهن في طلب اساس عقلي له ٠ وهيهات ان يبلغوا غايتهم ٠ فاللامعقول يكتنف من اقصاه الى اقصاه ، ويحف به من ادناه الى اعلاه ومن جميع اطرافه وحواشيه ٠ ولم يسمح بتسرب العقل الا الى مناطق ليست شيئا يذكر في جنب اللانهائي، مناطق تشتد فيها الاضاءة ، ويزداد فيها التعاكس ، وتكثر فيها المرايا ، فاذا بنا لا نرى في الكون الا عملية اضاءة وعكس وتمرية، كسراب بقيعة يحسب الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا ٠

ان رجل العلم لا يتوقع من التجربة ابدا ان تقدم له معلومات تكفي لوضع القانون ، لان التجربة محدودة ٠ فكل ما يمكنها فعله في هذا المضمار انما هو ان تقدم لنا عددا كبيرا من الحالات ، ولكنها لا تقدم لنا ابدا ذلك العدد اللانهائي من الحالات المطلوبة لجعل

القانون ضروريا • ان هذه الضرورة التي لا سبيل الى العثور عليها في اشياء هذا العالم ، لم تستطع اذهاننا الا ان تتشبث بها وان تفترض انها شيء بديهي لحاجتها من حيث لا تشعر الى ضمانة للقانون الذي به تفهم العالم • فالضرورة اذن امر لا معقول لا بد منه لاقتناص المعقول •

والان ونحن في العقد التاسع من القرن العشرين ، تبدل مفهومنا للعلم تبدلا جذريا • اننا نرى العلم الان كوصف وتفسير لتراكيب الطبيعة الداخلية الاساسية ، كما ان تعابير مثل : البنية والتركيب، الطراز ، الخطة ، الترتيب والهندسة المعمارية تتكرر باستمرار في أي وصف نحاول عمله •

واذا كان الغرب هو ذلك الفريق من الشعوب البشرية الـذي انتج ، او تمثل الى حد بعيد ، الحضارة الحديثة ، او بصورة اخص ابرز عناصرها : العلم ، والتقنية ، فان الوطن العربي هو ذلـك الفريق الاخر الذي يتيقظ الان لاساليب الحياة العصرية وينشـد بسرعة وقوة متزايدتين استخدام هذه الاساليب وتكييف نفسه على مقتضاهـا •

مكانة الانسان في الحضارة العلمية الحديثة

كثيرا ما نسمع في الفلسفـــة قول عام مفاده ان العلم مجرد تحليل او ارجاع الى الاصـــول ، كما يؤخذ قوس قزح ويحلل الــى ألوانه ، بينما الفن تركيب بحت اذ يأخذ الاجزاء ويجمعها ليركــب قوس قزح ، وهذه النظرية لطبيعة العلم والفن ليست صحيحة ، ذلك ان كل خيال يبدأ بتحليل الطبيعة • وقد قال ذلك ميكيل أنجلو ضمنا في كل منحوتاته ، (ويتضح ذلك بصورة خاصة في اعمـال النحت التـي لم ينهها) كما قال ذلك ايضا بصراحة في قصائده التي وصف بها العمل الخلاق •

(فعندما تتحد اليد مع العقل) تفرض المادة ذاتها عن طريق اليد ، محددة بذلك ، مقدما ، شكل العمل للعقل • فالنحات ـ مثل البناء ـ يشعر بالشكل الموجود داخل الطبيعة ، وهذا الشكل موجود ومتوفر سلفا في هذا الكون •

والمجتمع الــذي يتخذ شكله في الاسرة والدولـــة ، والتعاون الاجتماعي في حقول التقنية والاقتصاد والحياة الثقافية ، والقوة المنظمة للقوانين والحقوق ، نرى هذه كلها تنتمي بأوثق صلة الى الانسان والثقافة الانسانية ، بحيث يمكن مقارنتها بالتربة التي تتوقف عليها فيما اذا ترعرعت نبتة وازدهرت واثمرت أم ذبلت وماتــت •

وتعادل قوى المجتمع من حيث الاهمية العلوم التي تبحث هذه القوى • فقد جرى انتخاب رئيس للبلدية في احدى المناطق ، وبعد القاء نظرة على لائحة المرشحين قال رجل بسيط : (انني لم انتخب الا هذا الشخص ، فهو يحمل درجة الدكتوراه في الحقوق) • لقد كان رأي هذا الرجل انه لا يستطيع رئاسة بلدية مدينة بالشكل السليم الا من ألم بعلم الحقوق الماما بحيث خوله الحصول على الدكتوراه في ذلك • ولكننا لا نود بذلك ان نقول انه لا يمكن الحصول على معرفة عميقة بالحقوق الا في قسم الحقوق في الجامعة • فهناك عدد كبير ممن حصلوا على معارفهم وحدهم وبصورة مستقلة وذلك في جميع حقول العلم والمعرفة •

ويمكن تشبيه الحقوق بالتشريح ، وهو علم تركيب وقوانين بناء الجسم البشري • والمجتمع الانساني الكامن في كيان الدولة أيضا هو نوع من الجسد ، مكون من وحدة لها عدة اعضاء واجزاء• ومع ان هذه الاعضاء تتمتع بارادتها الخاصة بشكل يختلف عن اعضاء الجسم البشري ، فان هناك قوانين تحافظ على النظام السائد في الكل ، وهي ليست من نوع القوانين الفيزيائية او البيولوجية ، وانما ذات طابع خاص بها • فهي قوانين حقوقية ، تكوّن حقوق وواجبات المواطنين فيما بينهم وفي علاقاتهم مع الدولة • وهي تنظم السلوك الانساني ، وتدل على ما يجب ان يكون وما لا يجوز ان يحدث ، كما انها تهدد الظلم والتصدي على حقوق الغير بالعقاب • وفي الوقت نفسه يجب ان تشترط ان يعترف المواطنون بها ضمنا وللصالح العام • اما الدولة التي لا تقوم الا باستخدام القوة والضغط ، فلا بد ان تنهار في المدى البعيد • وقد أعطى الفيلسوف اليوناني سقراط الاجيال اللاحقة مثلا خالدا على احترام القوانين • ورغم انه كان يملك الامكانية على الفرار من عقوبة الموت التي فرضت عليه بالهرب ، فقد فضل ان يموت على ان يعطي مواطنيه وتلامذته مثلا سيئا على عدم احترام القانون •

وبما ان القوانين تحض البشر الاحرار ، لذا فانها لا تستطيع ان تنظم حياة الدولة تماما ، كما يفعل المهندس لضبط سير آلة ما · وليس المقصود منها ان تقوم بذلك في هذا الشكل ايضا ، اذ من واجب التنظيم القانوني ان يضمن حرياتنا ، لا ان يضغط عليها · اما الدولة الاستبدادية فهي تنظم مجموع الحياة البشرية حتى اخر تفاصيلها وذلك بقوانين منع وقوانين اجازة ، وبذلك تخنق امكانية اقامة حياته بشكل شخصي ذي طابع ذاتي · ومن الفنون الصعبة ان نكيف قوانين تلك العدالة التي تربط بين الصالح العام وحرية المواطن الفرد بالطريقة السليمة · وتجد فكرة العدالة انعكاسها في الشعور الحقوقي الوليد مع الانسان بالطبيعة · ويمكننا مقارنة مجتمع الدولة بشجرة جذورها هي الشعور بالحق ، فالجذور تعيش تحت الارض ، ولكن الاستبداد يعرف اين يجب ان يستخدم قوته ليسقط الشجرة ، فهو يدع قمة الشجرة في بادىء الامر دون ان يمسها ولكنه يبيد الجذور · فبالتدخل في الحق الخاص ، وباساءة التصرف والمعاملة تجاه الفرد ، كان الاستبداد يبدأ عادة وفي كل مكان ، واذا انهى عمله هنا وفي هذا المجال ، تسقط الشجرة من تلقاء نفسها ، ولذا يصبح مجابهة ذلك هنا · وقد كان الرومان يعرفون تماما ماذا كانوا يفعلون ، عندما كانوا يتخذون من الاعتداءات على العفاف النسائي والشرف ذريعة للقضاء على الملكية والاستبداد ··· ولكن ذلك ذنبنا وحدنا ، عندما نبدأ في فهم عبر التاريخ عندما يفوت الاوان · فقوة شعب ما تعادل في معناها واهميتها قوة شعوره الحقوقي · اما ميكانيكية الحقوق الخارجية وحدها فلا تكفي ·

وتكفي هذه الكلمات لتظهر ان الحقوقيين كمنظرين ومنفذين للحقوق يحملون مسؤولية كبيرة تجاه حياة الشعب كمسؤولية الاطباء تجاه حياة الافراد · فواجبهم ايقاظ العدالة في ضمائر الساسة

والحكام ، وبذلك ندرك العظمة والاعتبار اللذين تحملهما مهنة الحقوقي ٠

وفي الحقوق يكتسب نظام حياة الدولة شكله الخاص ، ومن العجب ان يوجد علم اخر ، او عدة علوم ، تبحث في هذا النظام ، ويدعى هذا الحقل بعلم السياسة ، غير ان هذا ليس بالامر العجيب حقا ٠ ففي الطب ايضا يدرس علم الفسيولوجيا ـ كعلم الوظائف الجسمية ـ علم وظائف الاعضاء ، الى جانب علم التشريح ٠ ففي انسجة الحياة السياسية وحياة الدولة ايضا ، تنبغي الحياة كذلك٠

ولدى الافراد نميز بين حياتهم الجسمية وحياتهم الفكرية ٠ وما يعني بالنسبة للفرد صحته الجسمية ، يعني بالنسبة للشعب حياته الاقتصادية ، وكما يجب ان يخدم الجسد بكامله الروح والفكر ، فان على الاقتصاد ان يخدم الثقافة ، وهي الحياة الفكرية لشعب ما ٠

وكان مما حمل نتائج مؤسفة لاوروبا ، هو ان علم الاقتصاد في القرن الثامن عشر نسي هذا المفهوم والمعنى الاقرب للاقتصاد ، وبدأ في اعتباره ميكانيكية قائمة وموجودة وحدها ولنفسها فقط ، وان التدخل فيها لا يأتي الا بالويل والاضرار ٠ وكان يجري الحديث على الالسن بذكر ((القوانين الاقتصادية)) ، كما يتحدث الفيزيائي عن القوانين الطبيعية ٠ وكان الكلاسيكيون في علم الاقتصاد يقولون بأن الانسان ليس له الا ان ينفذ قوانين الاقتصاد الطبيعية، وهي قوانين السوق ٠ واذا تم وتحقق ، فلن يبقى للمشتركين في الاقتصاد ، سواء أكانوا أرباب عمل أم عمال ، من دور يقومون به سوى ما يقوم به النمل في خلية ٠ ولكان كل موجودا لخدمة الاقتصاد فقط ، بحيث لا يكسب عيشه ، الا لكي يعمل ويواصل وظيفته في الاقتصاد ٠

ومنذ تلك الازمنة ، تدور افكار علماء الاقتصاد في الاساس

دوما حول هـــذه المسألة : الى أي حد توجـــد فعلا قوانين وحقائق اقتصادية لا يمكن خرقها ؟ والى أي حد ، من الجهة الاخرى ، يمكن تسيير الاقتصاد من بعيد ، لتحقيق اهداف اسمى واعلى ، سواء أكان ذلك عن طريق سياسة اقتصادية تتبعها الدولة ، أم كان ذلك عـن طريق ارادة الافـــراد والجماعات الواعية التي تملـــك نفوذا اقتصاديا ؟ وتلعب هذه القضية في حياتنا العامة دورا كبيرا أيضا. فمنهم من يطالب بضرورة قيام الاقتصاد بتحقيق انجازات معينـــة (كزيادة رواتب التقاعد والاجور مثلا ، وكذلك ضرائب ومساهمة مالية للدولة واحياء الثقافة) ، ومنهم من يقول بأن ما يستطيع الاقتصاد ان يحققه ، يتحدد حسب قوانين الاقتصاد الخاصة . ولذا فانهم يقاومـــون أي توجيه سياســـي للاقتصاد او ايـــة محاولات لتخطيطه .

ولكن من وضع الاقتصـــــاد في دائرة العلوم السياسية ، فانه يعبر بذلك عن الرأي القائل بأن الاقتصاد لا يعتبر حدثا قانونيا طبيعيا خالصا ، وانما حقلا من حقول الحياة يستطيع فيه الفكـــر الانساني والارادة البشرية ان يسود ويتدخل مميزا شكلا في ألوان جديدة . وهذا لا يعني ان الانسان يجوز ان يفعل ما يشاء في الحياة الاقتصادية وحسب هواه ، بل أن يكون للدولة دور المنظم والمخطط .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن البحث في العلم هـــو الشيء المميز لطبقة معينة ، او انه امتياز لطبقة ما ، دون الاخرى . وبطبيعة الحال فان اسمى شكل له وهو البحث الشخصي للاعمال والاغوار التي لم يكشف النقاب عنها بعد ، لا يمكن ان يتم الا اذا اتخـــذ كمهنة حياة كاملة تشغل وقت الانسان وجهـــده الكامل . فمثـــل الفنان ، يقف الباحث الممتهن تحـــت قانون يفرض عليه البحث والعمل الدائب ولا يتخلى عنه أو عن فرض نفسه عليه . ولكن كما يستطيع الانسان ان يتفهم الفن ويتصل به دون الحاجة الى ان يكون

فنانا بالفعل ، وكما يستطيع الفن ان يسمو بأرواحنا ويقف نفوسنا وكياننا الكلي ، فان العلم لا يقل عن ذلك قدرة ، حتى وان لم نستطع ان نتبع سبل وطرق الباحث ، الا بالخيال والفكر المجرد ٠

ان معرفة الحقيقة تساعدنا دوما على (ادراك مكاننا الحقيقي في العالم والوجود) ، كما انها تملأ نفوسنا بالسعادة لامتلاك ثروة داخلية لا يستطيع ان يسلبنا اياها أي قدر خارجي ٠ ولكن من اتخذ من العلم مهنة لنفسه ، فهو كالطالب الذي يستحق هذه المهنة ولا يثبت انها خليقة به ، الا اذا أظهر انه لا يكتفي بمجرد حفظ المعلومات والتفاصيل المفردة وبمجرد قدرته على اجتياز الامتحانات المطلوبة ، بل عندما يخضع للعمل الشاق الذي يتطلبه البحث العلمي ، وعندما يحاول فهم العلاقات والملل التي تنطوي عليها الحقائق الصغيرة المطلقة ٠ فالعلم هو معرفة الاسباب والعللّ ، وهذا هو ما يبرر محاولاتنا لانارة وايضاح الاسباب والعللّ الخفية لكلّ معرفة ، واختراقنا حجب ما وراء الطبيعة والفيزياء ، حجب الفلسفة ٠

ان العبارات الثلاث (ايضاح علل الاشياء ، اختراق حجب ما وراء الطبيعة ، والبحث في الفلسفة) ، التي ألمحنا بها الى ما ننوي الان الدخول في بحثه تبدو جميعا وكأنها تحتوي على تناقض ما : فما معنى قولنا بايضاح العلل والاسباب الخفية لمعرفتنا وللعلم ؟ فاما ان نكون قد توصلنا فعلا الى جذور الاشياء واسسها ، بحيث لا يمكن ان يكون وراءها شيء اخر ، او اننا لا نكون قد توصلنا الى ذلك بعد ٠ وبذلك لا نكون قد بلغنا هدف العلم ٠ ثم ما نعني بكلمة ما وراء الطبيعة ؟ ما يمكن أن يكون هذا الامر عليه ، ذلك الشيء الذي يكمن وراء الطبيعة ؟ فأما ان يكون شيئا حقيقيا ، بحيث يمكن للفيزياء او لأي علم اخر ان يعلله ويفسره ، واما الا يكون حقيقيا ، بحيث لا نحتاج الى بحثه على الاطلاق ٠

والحكمة بطبيعة الحال هـي شيء أعظم من مجرد المعرفة وحدها ، والحكيم هو ذلك الذي يعي ويدرك ويكلم بكل شيء ، ولا تقتصر معرفته على هذا الامر او ذاك من العالم ومن الحياة فقط ٠ ومن يستطيع ان يبصر كل شيء ، هو وحده الذي يستطيع بكـل تأكيد ان يقول وبفعل الحق والصحيح ٠ ومع ذلك فان افلاطون يرى ان (اطلاق وتسمية الحكيم على انسان ما ، تبدو اكثر بكثير مما يستحق ، لان الحكمة صفة اكثر ملاءمة لله الخلاق) ٠

ويرى أفلاطون ان الانسان قد يطلق عليه في أحسن حال اسم الفيلسوف ، أي العاشق المحب للحكمة ٠ ولكن هل يستطيع الانسان حقا ان يحب ما لا يمكن بلوغه والوصول اليه ؟

ومع ان الشاعر الالماني غوته علق مرة بقوله : (ان الانسان يحب النجوم ولكنه لا يتمناها ويشتهيها) الا ان الحب الذي يعجب بالمعشـــوق دون ان يتمناه ويشتهيـــه ، وهو ما يعرف بالحـــب الافلاطوني لا يبدو جديا صادقا تماما ٠

وفي غمرة الحضارة العلمية الحديثة التي اخذت رياحها تلامس وطننا العربي ينظر المرء منا الى عالم الطبيعة على انه عالم لا نهاية له في تنوعه واختلاف وجوهه ٠ فمن كان يحبه ويتعشقـه يكتشف فيه دوما وجوه جمالٍ وتذوق جديدة ، ومن يحب الحيوانات يعرف خصائص كلٍّ منها ، ومن يهـــوى الزهور يرى في كلّ وردة وجها خاصا بها ، كما ان كلّ قطعة رخام او مرمر تختلف عن غيرها ٠ ففي الطبيعة ايضا نرى أشياء تختلف اختلافا فرديا فيما بينها ٠ ولكن الاختلافات بين اشياء تنتمي الى النوع نفسه ، لا تكون الا سطحية ظاهرية فقط : من حيث شكلها ولونها وتكوينها وجمالها ٠ وقد يمكن زرع زهرة غريبة جدا من زهور الاوركيد ، غير ان الغرابة الخاصة فيها لا تكون الا في شكلها الجسمي ٠

اما الكائنات الاقدر على التطور ، فهي الحيوانات ذات المرتبة

الاعلى . ويمكن للانسان بمعاملته ، تربية سلوك وتصرف واعمال هذه الحيوانات بشكل خاص الى حد معين . فقد يظهر الكلب او الحصان اخلاصا او سلوكا حسنا ، يفـوق بحده تصرفـات بعض الناس ، ولكن هذا مرده الى التعود . فبالمقارنة مع الانسان ، نرى ان اكثر الحيوانات اخلاصا وودا يظل جامدا اخرس، ورغم انه يتمتع بفردية خاصة به بحيث يتميز بها عن غيره من الحيوانات مـن جنسه ونوعه ، فانه لا يتمتـع بشخصية ، ولا بمكـــن ان يصبح بالنسبة للانسان بنفس العلاقة التي تتوطد بين شخص واخر . والحيوان يفهم نغم صوت سيده ، وهو يشعر فيما اذا كان سيده حزينا او غاضبا او مسرورا مرحا ، ولكنه لا بمكن ان يفهم سبب ذلك مطلقا . وبما انه لا يفهم ما بحرك قلوبنا ، لذا فانه لن بستطيع التحدث الى سيده حديثا حقيقيـا . وهو لا بستطيـــع ان يصبح (أنت) بالنسبة لسيــده ، لانه لا يملـك (أنا) ولانه لا بتمتع بشخصية خاصة به . وعلى النقيض من ذلك ، نرى الانسان وكل ما يحمل طابع شخصيته .

وهناك شخصية واحدة فقط لكل فرد منا . وان لم ندرك ذلك في حين مبكر ، فاننا سندركه على قبور أولئك الذين احببناهم . وعندما نسأل ، بأية اشياء تتميز الصفة الفردية لكل انسان ، فسيكون جوابنا : بطبيعته ، وقد لا نستطيع التفريق بين توأمين لفرط الشبه بينهما ، ولكن كلا منهما يظل متميزا بطبعه وشخصيته عـن الاخـر .

وينتمي الانسان اذا ما نظر الى جسده ، الى عالم الطبيعـة ايضا . ولكنـــه لا ينتمي لها بنفس الطريقـــة التي ينتمي لهــا الحيوان . ففي كل انسان تتحد الروح والجسد ســـوية في شخص واحد وهما يؤثران الواحد منهما على الآخر بحيث يولدان شـــكلا ثابتا . وتتضح الطريقة التي بحياها الانسان بجلاء على مظهره

الجسدي ، كلما دامت طريقة حياته واستغرقت من مدة زمنية ٠ فوجه الام التي وهبت الحب والخير طيلة حياتها لا يمكن ان يعبر الا عن الحب والخير ٠ اما ان الجسد يؤثر بدوره على النفس كذلك ، فاننا نعلم ذلك من اي خلل قد يطرأ على حالتنا الصحية الجسدية٠

ولكن الجسد يخضع الى درجة معينة لسيادة وسيطرة الارادة، وعندما يستخدم الانسان هذه الارادة ، فان جسده يصبح دليلا على شخصيته ٠ ولا تكسب الروح جمالها الانساني الحقيقي ، الا عندما تشع فوق وجهه البشري ٠ ومع ان وجه فتاة ما قد يكون جميلا كالبدر ، بالتعبير العامي ، بحيث يقول المرء : ان هذا الوجه هو النموذج الذي يعجبني ، ولكن النموذج وحده لا يكفي لصداقة عمر ورفقة طويلة في رحلة الحياة ، بل لا بد ان تكون هناك شخصية خاصة ذات طابع خاص يملك (أنا) ويمكن ان يصبح (أنت) ٠ ونرى كثيرا ، عند اختيار رفيقة العمر ، ان الفتيات ذوات الشخصية القوية الجذابة هن اللواتي يتفوقن على النموذج الجميلة التي لا تملك غير جمالِ البدر ٠

وكلّ انسان منا فريد في نوعه وشخصه ٠ ولذا فان نتاج روحه وافكاره واعماله فريد أيضا ٠

وقد نعترض على ذلك ونتساءلَ : ليس هذا نموذج واحد هو الذي يقرر سلوكنا الانساني في كثير من الوجوه ؟ كأن نقول دوما (صباح الخير) ، او كتصرف كل منا اثناء سفره الى عمله في السيارة كل يوم ، ففي مثل هذه التصرفات لا نرى فارقا شخصيا يميز بين شخص واخر ٠ وهذا صحيح ، وهو السبب في اننا ندعو مثلَ هذا التصرف بأنه (غير شخصي) ٠ فنحن نخفي وجهنا الشخصي تحت قناة المجهولية ٠ وفي عصرنا الحاضر تشترك عدة عواملَ في تطوير ونشوء هذا الكيان والتفكير غير الشخصي ، وهناك خطر يهددنا بالاستمرار في فقد طابعنا الشخصي اكثر فأكثر ٠

والاعمال التـــي نخلقها لا تكون فريـــدة حقا الا في الحـالات المستثناة الخاصة · ورغم انه لا يلذ لنا تذوق اي طعام بمقدار ما يلز لنا طعام أمنا في المنزل ، فهي تستطيع ان تطبخ بصورة فريدة فعلا ، ولكن العادة والمحبة التي نحملها للام هما المسؤولان عـن حكمنا هذا · واعمال التلميذ في المدرسة او العامل الصغير المتمرن في العمل ، لا تتمتع بدرجة عالية من الاصالة ، ثم ، هل يحمل العمل المهني مثلا طابع الاصالة والنوعية الفريدة ؟ فعمل العامل امام حزام الانتاج السيار ، وكذلك عمل طبيب الاسنان الذي يعتبر اكثر طابعا شخصيا يتكرران كل يوم ، حتى وان وضعا ، بواســطة مقدرتهما المهنية واهتمامهما بالعمل شيئا من الشخصية منه ·

لقد قلنا سابقا ان الاشياء في الطبيعة لا تحمل أي طابــع لانها جميعا تخضع للقوانين نفسها · اذ ان عبارة (قانون) لا تعني اكثر من ان شيئا يحدث دائما وفي كل مكان بالطريقة نفسها · واذا كان لا بد من القول بأن تصرف الانسان واعماله هي في الغالب لا تحمل طابعا شخصيا كبيرا ، فان السبب في ذلك هو ان الانسان أيضا عبارة عن كائن طبيعي بكيفية ما وانه بذلك خاضع للقوانين الطبيعيــة ·

اما ما يتعلق بالخلق الانساني ، فمن السهل ادراكه ، اذ ان الابداع الانساني يتحقق بأية مادة ما · ومع اننا نميز بين العمل الفكري والعمل الجسدي ، الا ان الاخير خاضع لقوانين المادة اكثر من الاول بكثير · فقاطع الخشب في كندا يقتطــع الشجرة بنفس الطريقة والاسلوب اللذين يتبعهما قاطع الاخشاب في افريقيا · ولكن العمل الفكري ايضا يحدث ويؤثر في المادة المعطاة كما انه يأخــذ بعين الاعتبار قانونهما الخاص بهما ايضا · فمصمم القاطرة يجب ، رغم كل مساعيه لخلق شيء جديد ، ان يعتبر الخصائص التكنيكية بالدرجة الاولى ·

والامر لا يقتصر على التكنيكي وحده فقط • بل ان الفنان ، الذي نتوقع مقدارا كبيرا من الاصالة في انتاجه الفني ، لا يستطيع ان يتحرر من اعتماده على نوع مادته التي يستخدمها وعلى الغرض العملي من انتاجه • فالمنزل ، مهما قصد ان يكون جميلا ينطق بالفن ، لا بد ان يكون مناسبا للسكن قبل أي شيء اخر •

ومع ذلك فانه يتضح لنا من هذه الامثلة المختلفة ، ان مقدار الطابع الذاتي الفريدة في عمل ما يتوقف على قدر ما يكمن فيه من روح ونفس وفكر • وحتى في قطع الاثاث الموحدة يمكن ان يتحقق ذوق المهندس المصمم وابداعه الفني • ولكن الانتاج الفكري والروحي سيختفي في ذلك ، لان الفكرة نفسها ستتكرر في قطع الاثاث المتعددة الكثيرة وتبدو منسوخة مرات عديدة •

وكما هو الحال في انتاج واعمال اليد البشرية ، فاننا نكتشف في الانسان نفسه ايضا هذا الازدواج : خصائص شخصية وأخرى جماعية مشتركة • ورغم اننا كبشر نختلف في التفكير ، بحيث يفكر شخص ما بسرعة خاطفة ، واخر ببطء ، وقد يكون تفكير شخص اكثر منطقا ، والثاني اكثر بداهة ، الا ان هناك قواعد مشتركة عامة بالنسبة للتفكير الانساني • وهكذا ، فاننا بالرغم من الاختلاف فيما بيننا من حيث رد الفعل الشعوري في كل منا ، لا نعتبر هذا الاختلاف الا اختلافا جذريا • وفي الموقف نفسه ، يشعر جميع الناس نفس الشعور تقريبا : فهم يفرحون أو يحزنون بنفس الاسلوب ، ومع ذلك فان ما يحس به كل منهم في تلك اللحظة ، يظل أمرا شخصيا تماما •

وفي هذا التشابه في طريقة تفكيرنا وانفعالاتنا ،وحديثنا وكتابتنا ، وكذلك في التشابه القائم في العمل والخلق الانساني ، نرى دوما (طابعا شخصيا) • وهذا الطابع يظهر على أي حال ،

عندما لا يكون الامر مجرد تقليد أعمى لا روح فيه لنماذج خارجية غريبة • ولا يحتاج الامر الى اكثر من الحديث مرة واحدة مع خياط مثلا ، ليسرد علينا كيف يخيط بذلة ، او لمراقبة طاهية وهي تهيء الطعام في مطبخها • وبطبيعة الحال فان كناس الشارع وعاملة الرزم في المخازن التجارية لا يظهران مثل هذا الطابع الشخصي في عملهما • فهما لا يستطيعان ان يدخلا في عملهما الا قسطا ضئيلا جدا من الانتباه الشخصي والشعور باداء الواجب على أحسن وجه• ومع ذلك فان كل خطأ نكتشفه في حياكة زوج من الجوارب اشتريناه حديثا ، يدل على عدم انتباه المراقب المسؤول عن ذلك • فعمله الذي يبدو ظاهريا مملا وبعيدا عن الطابع الشخصي ، سيرقى من خلال موقفه الشخصي من هذا العمل •

وهكذا فاننا في بحثنا عن مكانة الانسان في الحضارة العلمية الحديثة ، سنواجه انتظاما وقانونية من جهة ، وكذلك اصالة فريدة وفردية خاصة من جهة اخرى •

ذلك ان الانسان يستطيع ان يتدخل في الطبيعة الموجودة بين يديه ، وان يغير من وجهها بصورة مستمرة • والانسان يستطيع عمل هذا ، لانه قادر على التبصر في كنه الطبيعة ، وندعو هذه المقدرة (بالفكر) • والانسان الذكي يسجل بجميع حواسه انطباعات لا حصر لها ولا عد ، ثم يقوم بتوسيع أفقه ، ويسعى الى الاستزادة من الملاحظة ومضاعفة التدقيق في مراقبته للطبيعة وظواهرها •

وخلافا للحيوان ، فانه لا يكتفي بالبصر والسمع فقط • بل انه يقارن ما رآه وما سمعه ، بما تجمع لديه من تجارب سابقة في هذا المضمار • كما أنه يستنتج ويميز • وهو يلاحظ العلاقات ويكتشف حالات الانطباق على القوانين الطبيعية • وهو يخترق ظواهر الاشياء وسطوحها الخارجية ، ويسبر اغوارها ، ثم يقلبها ويحللها ليستطيع بذلك فهمها وتحديدها بمفاهيم وكلمات واحكام،

وقرارات • وهو يواجه الاشياء ، ويقف امامها ، ويفهمها بالنسبة لعلاقاتها مع الاشياء الاخرى ومع مجموع عالمه • وهو يتعمق بواسطة هذا الفهم في باطنها ، بحيث يكشف الستار عن قوانينها الداخلية، فتنكشف امام عقله • فالعقل هو الذي يدرك ، وهو الذي يتناول بحث الوجود والحقيقة •

والعقل الذي يحاول فهم كنه ما يمسك بالعالم في اعماقه وصميمه ، والعقل الذي بواسطته نخترق حجب العالم مفكرين : هذه القوى الفكرية الفريدة في نوعها تمكن الانسان من تسخير عالم الاشياء لخدمته • والانسان ليس خاضعا لهذه القوى فاقد السيطرة امامها ، بل انه ليستطيع السيطرة والهيمنة عليها • فهو يجعل ارادته تؤثر عليها ، وهو بتصرفه الواعي ، يسبغ على الطبيعة طابع شخصيته المميز • وهو لا يكتفي لتحقيق شبعه بالتقاط ما يجده في الارض فحسب ، بل انه يزرع الارض ويرعاها ويجبرها على انتاج ما يريد • وهذه الفعالية التي يوجهها في البداية الى الارض الزراعية ، ثم يسلطها على جميع كنوز الطبيعة الاخرى ، هي ما يدعى (بالتمدن) •

وهناك ، كما رأينا ، أربع خطوت يتخذها الانسان لامتلاك العالم : الملاحظة (بالحواس) - والتبصر (بالعقل) - والمعرفة (بالادراك) - والتعرف (بالارادة) •

ولا حاجة بنا الى التأكيد بأن لجميع هذه القوى حدودها الخاصة المعينة • ونحن لا نعرف من اسرار الطبيعة الداخلية ، الا الشيء القليل • وكلما تعمق العقل الباحث في اغوارها ، كلما التقط الادراك انغاما بعيدة تستدعي مزيدا من التعمق ، لان لمحيط الوجود اعماقا لا يمكن سبر اغوارها وتقدير اعماقها • وتظل محاولات عقلنا وفكرنا لتنفيذ جميع الاشياء في نظام واحد ، مجزأة مغرقة • ويقول شكسبير انه توجد بين السماء والارض اشياء اكثر بكثير مما تحلم به حكمتنا التي جمعناها في المدرسة •

ولكن ما هو شأن الارادة البشرية ؟

فكم فشلت قوتها وبسالنها امام جبروت الحقائق والظـروف الطبيعية • وكم هـــو صغير محدود ، مجال افكارنـــا ومشاريعنا ووضعها موضع التنفيذ • فنحن البشر لا نستطيع ان نوجد شيئا من العدم • وهكذا فاننا نعتمد على المادة وعلى مساعدة الغير ، ونرتكز دوما على اكتاف أخرى ، ومع ذلك فان الانسان يرتفع ويعلو على جميع المخلوقات الاخرى • وقد قال اوغسطين : (انت تختلف عن الحيوان بالعقل فلا تحاول ان نتباهى بأي شيء غير العقل ، هل تتفاخر بقوتك ؟ ان الحيوانات المفترسة تفوقك في ذلك • أم نتباهى بسرعتك وحفتك ؟ ان الذباب يفوقك في ذلك ايضا • وان كنت تتباهى بجمالك ؟ فما اجمل ريش الطاووس ، فبأي شيء تفضل غيرك من المخلوقات ؟) •

وبقدر ما تقل حاجتنا الى البرهنة على ان فكر الانسان مرتبط بحدوده بها ، فلا حاجة بنا ايضا الى مناقشة اولئك الذيـــن لا يقيمون أي وزن لقوة الانسان الفكرية والذيـن يدعون بالمتشككين والتجريبيين • فالتشكك هو الذي يشك في مقدرة الانســان على ادراك اي شيء يقارب الحقيقة ، وعلى مقدرته في اصدار حكم يمكن اعتباره عاما في سريانه وصحته • اما التجريبية ، فهي موقف اولئك الذين لا يؤمنون الا بالاحكام التي تؤيدها التجارب العملية • فلا يعرف بالتأكيـــد ما يمكن قياســـه ووزنه ، اي عالـــم التجارب الحسية • وهذا العالم يكون موضوع العلوم الطبيعية •

ولكن هل تتوقف قوة معرفتنا فعلا على الجانب الظاهري من العالم ، على ظواهر الاشياء واشكالها التي ندركها بحواسنا •

ألا تستطيع معرفتنا اختراق حجب كنه الاشياء ؟ وهل يظل كنه الاشياء سرا مغلقا امامنا ؟ الا توجد امكانية لاختراق بواطن العالم ؟•• ولكن سيتضح ان هذا الشك في قوة الفكر الانســـي ،

لا مبرر له ابدا • وسنرى ان طبيعة الفكر المميزة ، تتجسد في مقدرته على معرفة الاشياء كما هي (في الحقيقة) • وفي مجموع التاريخ البشري ، لم يخلق مفكر واحد من الدرجة الاولى ابدى شكه في ان العالم الفكري هـــو شيء اخر غير ظاهـــره المادي ، وان البشر يختلفون في المساهمة في العالم الفكري الروحي باختلاف فكر كـل منهـم •

ومع ذلك فقبل ان يجد البشر شجاعة كافية لاختراق باطـن العالم بالعقل الباحث الواعي بزمن طويل ، أي قبل ان تتمكن العلوم من تحقيق ما تقوم به اليوم من بحث في جميع الحقول ، حاول البشر بالحدس والتخمين ، اكتشاف مجموع العالم والحياة ، ومسببات الاشياء واسسها ، ومعناها وكشف النقاب عن الحقيقة •

لقد كان الانسان في جميع اطواره دوما متعطشا الى المعرفـة ساعيا وراء الحكمة ، متأملا مقلـــدا في الخلق • وكان دائما يعبر بالكلام والرموز ، بالرسوم والصور ، بالتمثيل الصامت والرقص ، بالاحتفالات والالعاب الدينية التقليدية ، عن نفسه وعما يحركه في أعماقه • وكان يمد يديه دوما الى الطبيعة مغيرا من شكلها ، حتى وان لم يتجاوز ذلك ، اشعال ناره وصناعة ادواته التي كان يستخدمها بعقل وتفكير • وكان يرافق طريقـــه التاريخي دوما ، شيء من المدنية والحضارة •

وفي اقدم العصور لم يكن تصوره للعالم ـ أي الصورة التي كان يحملها عن العالم ـ وكذلك موقفه من هذه الصورة ـ أي نظرته الى العالم ـ يستندان الى الادراك العلمي بعد ، بل الـــى اعتقادات تخمينية • وكان يعبر عن ذلك في الاساطير والخرافات ، اما زمن نشوء الاساطير ، فلا يمكن معرفته في ظلمات العصور الغابرة • فهي نسيج آلاف من السنين • وهي لا تنطق بالمفاهيم المنطقية ولا تستند الى التفكير المنظم المنسق ، بل يعبر عنها بالصور والرسوم

والرموز · والاساطير ، تعاصر مهد كل الحضارات التي أتت بها البشرية · وهـــي تشير الى صيرورة العالــم وفنائه والى الحياة البشرية ، في كثير من المرات استنادا الى دورة الطبيعة في خلقــه العام ، وفي مرات اخرى استنادا الــى مراقبة السماء وكواكبها · وأصل الاساطير يعود الى سهول ما بين النهرين ، كما ترعرعت تحت شمس اليونان ، والى جانب نيران مدافىء الشمال ، وفي غابات جرمانيا ، وكذلـك في الادغال الافريقية وعلــى جزر البحار الجنوبية · وقد جاء في مجموعة الاساطير الايسلندية التي تعرف (ادا) اكبر عدد من الاساطير التي حاول فيها الانسان في عصوره الغابرة في شمالي اوروبا ، ان يعطي اجوبة عن اسئلة الفكر والقلب الانساني ، التي لا مرد لها حول الوجود والمعنى ، والحقيقة والقيمة·

والمصعد الثاني الذي كان يغذي التفكير الانساني منذ قديم الزمن : هو الوحي الاول الذي وهب للانسانية منذ كان الانسان لا يزال في الفردوس والذي لم يزل كليا حتى بعد الخطيئة الاولى · ونرى هذا الوحـــي في صفاته في الكتب السماويـــة ، الا ان اجزاء مختلفة من هذا الوحي تسربت الى مختلف الحضارات ، واستمرت حية في وعي الانسانية المشتركة ، حتى بعد ان انقسمت هذه الى اجناس وشعوب وأمم مختلفة ·

وفيما بعد ، أي بعد مضي فترة تاريخية طويلة نسبيا ، راح يبرز من صفوف الفكر الانساني المجهول الهوية ، والذي يتجسد أصلا في المجتمعات البشرية المختلفة ، شـــعراء ومفكرون بارزون بأشخاصهم وبانتاجهم الفردي · ولعل اقدمهم ، هوميروس مثلا ، قاموا بنظم النتاج الفكري المتوارث في وحـــدة كلية ، بدلا من ان يعطوا تفسيرا شـخصيا لمعنـــى العالم وكهنــــه ، الا ان الانتاج الشخصي للشعراء والفلاسفة اخذ يكسب اهمية متزايدة متعاظمة· واخذت صورة العالم الاسطوريـــة تنحني أمام الصورة الشعريـــة والعلمية الفلسفيـــة ·

أما في الغرب ، فقد كان موطـــن الفكر الانساني الشعـــري والفلسفي ، تحت سماء اليونان ، وقد وهب الفكر اليوناني أهــل الغرب اول تصاميم لصورة كاملة عن العالم والحياة ، قامت على الملاحظة والعقل الناقد ويمكن اعتبارها ادراكا للعقل •

وقد بدأ المفكرون اليونان ايضا نتاجهم الفكري الشاق فـــي بادىء الامر ، بمحاولة فهم العالم الخارجي ، عالم المواد والحواس• اذ ان اهتمامنا بالعالم الخارجي ، هو الذي يقودنا الى التعمق في اسراره الباطنية ، والى ادراك اننا نختلف كبشر عن هذا العالم • وبالتقاء الانسان بعالمه المحيط وانشغاله به فقط ، يبدأ الانسان بادراك نفسه ووجوده •

وكما قال افلاطون ، فان دقة البحث والدافع اليه ، تنبعث من دهشة الانسان لتنوع وغموض نظام العالـــم • وقد حاول قدماء المفكرين اليونان اول مـــا حاولوا ، ان يبحثوا عـــن أسس العالم وسببه • وقد كان هؤلاء الفلاسفة الطبيعيون في آسيا الصغـــرى اليونانية يبحثون بالدرجة الاولى عن المادة الاصلية ، التي كانوا يعتقدون باكتشافها في المواد الاربع المعروفة ، وهي : النار والماء والهـواء والتراب •

وقد برز من العصور الاولى للفلسفة اليونانية اسم هيرقليطس، بحيث اصبح يحمل اهمية تاريخية عالمية • ونحن مدينون لـــه بالاشارة الى الحركة الكامنة في العالم وفي جميع الاشياء ، والتي تسبب فيها حدوث تناقضات تؤدي الى حركة دائمة • وحســب رواية افلاطون ، فقد كان هذا الفيلسوف يعلم تلامذته بقوله : (ان كل شيء سائر ، ولا شيء يظل ثابتا على حاله) • والعالم تيار أزلي (والصراع هو أب جميع الاشياء وملكها ، فهو الذي يسبب نشوء وزوال جميع الاشياء) •

اما الفكر الذي حول انظار الانسانية المتسائلة عن العالم الخارجي ، ووجهها الى الانسان نفسه والى اعماقه الداخلية فهو سقراط ، ورغم انه لم يكن اول من فكر في الانسان ، الا انه علم الانسانية بجد لا مثيل له ، بأن اهم الاشياء جميعا هو ان يكون لنا هدف نسعى اليه .. وهو ان نصبح انسانا كاملا . وبالنسبة له كانت القيم الفكرية الروحية ، والحقيقة والطيبة ، تعني اكثر من العالم وما فيه اجمع ، حتى لقد دفع حياته ثمنا لهذه القيم ، كما جاء وصف ذلك بصورة تهز الجوانح في كتاب (فايدون) لافلاطون. ومنذ عهد سقراط لم يتوقف البشر عن التفكير والتأمل في الهدف الذي نعيش من اجله على الارض .

وبالمناسبة ، فقد قدم سقراط خدمة جلى للعلم ايضا ، اذ يندر وجود شخص مثله ، كان يعرف بالحوار كيف يقود تلامذته من معرفة الى اخرى ، وكيف يجيد فن القاء الاسئلة الصحيحة . وتدعى طريقته ، وهي التفكير بواسطة المتناقضات ، للوصول من خلالها الى وسط الحقيقة الذهبي ، بالدياكتيكية . وقد كتب لها ايضا ان تحمل اهمية خاصة في يومنا الحاضر .

ونحن لا نستطيع فهم تفسير الانسانية في الغرب لقضايا الوجود الكبرى ، اذا لم نذكر اكبر فيلسوفين يونانيين . فقد ساهما اكثر من أي مفكر اخر قبل مولد المسيح ، في تحديد معالم صورة العالم والنظرة اليه ، أي في تكوين تصور الانسانية لكامل الوجود وموقفها من الحياة والعالم في تطورنا التاريخي ، اما هذان المفكران العظيمان فهما افلاطون وارسطو .

الجانب الاقتصادي
من الحضارة العلمية الحديثة

يصعب تحديد مفهوم النظام الاقتصادي بدقة بالرجوع الى حاجات الافراد حيث يسمى اقتصاد النشاط الذي يميل الى سد حاجات البشر • ولكن هذا التحديد قل ما يرضي ، لان هناك حاجات كالحاجات الجنسية التي لا يمكن ان نقول بأن اشباعها يستلزم نشاطا اقتصاديا بحصر المعنى • من ثم فلا يمكننا قط احصاء حاجات الناس بطريقة دقيقة • ويمكننا القول بطريقة غريبة في الظاهر على انها في حقيقتها مبتذلة بأن الانسان حيوان فالحاجات التي قد تبدو بالنسبة اليه غير اساسية هي ايضا حاجات ملحة كالحاجات التي نسميها جوهرية • ومنذ ان تصبح حاجات الانسان الاساسية مؤمنة كالحاجة الى الطعام والحاجة الى الحماية ، تنشأ حاجات اخرى من النظام الاجتماعي كالحاجة الى المعرفة والاستطلاع والحاجة الى السلطة والنفوذ بشكل يستحيل معه القول بأن هذه الحاجات اقتصادية والحاجات الاخرى ليست كذلك •

وبالطبع فان كل اقتصاد غايته اشباع الرغبات والحاجات ، وهدفه الاخير هو الاستهلاك • ان درس اقتصاد ما بالنسبة الى الاستهلاك هو البحث اولا عما يريد المجتمع استهلاكه ، اي البحث

عما هي الاهداف التي يسعى الى ادراكها ، وما هي المنتجات التي تلح عليها والتي تريد الحصول عليها • ان درس الاستهلاك في المجتمع المركب معناه تحديد المستوى الذي يرتكز عليه الاستهلاك لمجتمع ما بكامله او لبعض الطبقات الاجتماعية او بعض الافراد ومحاولة تعيين كيفية اعادة الافراد لتوزيع الاستهلاك وفقا لرغباتهم وهو ما يؤدي بنا الى التفريق بين ما يسمى المستوى الحياتي الذي هو مفهوم كيفي •

ويعتمد نمو الحضارة العلمية الحديثة من جانبها الاقتصادي على تطور ما دعاه ماركس بقوى الانتاج ، اي الاعتماد على سيطرة الانسان على قوى الطبيعة ، وهي تتأثر بكل عنصر من عناصر حياتها وفكرها ، بعامل المعرفة التي اكتسبتها خلال القرون بخطوات متزايدة الاتساع ، في مجال اسلوب استغلال قوى الطبيعة في خدمة الاهداف الانسانية • وخلال القرنين الماضيين ، تزايد هذا النوع من المعرفة ، اسرع بكثير من اي وقت مضى في التاريخ البشري ، حتى وجدنا انفسنا في هذه الايام مرغمين على تبديل عاداتنا بأسرع مما نستطيع تشكيلها ، والانكفاء الى الاعتقاد بالسحر والمعجزات بتأثير من العلم نفسه ، الذي كان في السابق . العدو الذي لا هوادة لديه لتلك النزعات • لقد كان الشوط الذي قطعه الانسان في غزوه المعرفة بعيدا ، بحيث ان الذين خلفوا أولئك ، اعتادوا ان يجدوا فيه أساسا متينا للنظريات المتفاعلة في التقدم ، حتى اصابهم الذعر واصبحوا شديدي الحذر من تفوق الانجاز العلمي • واننا لنحتاج الى أناس مغرقين في التفاؤل لكي يجدوا في اطلاق الطاقة الذرية خيرا خالصا ، او يتجاهلوا ، كما فعل الكثيرون في المراحل المبكرة من سيرة الاختراعات ، فكرة كون الطريق نحو الدمار ، والطريق نحو يوتوبيا الاحلام ايضا ، مرصوفا بالاكتشافات العلمية •

ومع ذلك، فحتى أولئك الذين يدركون ادراكا عظيما خطورة تفوق

العلم ، لا يفكرون في عرقلة تقدمه • فنحن نعتبر ذلك اليوم مسلمة من المسلمات مع وجود تحفظ واحد ، مفاده ان العلماء قد يحطمون في يوم من الايام ، يوم قد يكون قريبا ، يحطمون انفسهم والعالم اربا اربا ، في كارثة عظمى تقضي على آمال البشر ومخاوفهم • اننا نتوقع في هذه الايام حدوث تغير ، تغير مضطرد ، سواء أكانت آثاره تروق لنا او لا تروق • ان هذا السلوك جديد ، لا بل انه غاية في الجدة بالنسبة للغالبية العظمى من الجنس البشري • فطيلة آلاف من الاعوام استمر جيل بعد جيل من البشر يعيشون فوق مصادر حيوية هائلة من الانتاج ، ولا تنقصهم المعرفة لاستخدامها فحسب ، وانما القوة على التعرف عليها كمنابع للطاقة الانتاجية • لقد كان هناك الفحم تحت الارض وحتى على السطح ، وكانت هناك مخازن المعادن الثمينة المختلفة الانواع ، كما وجدت طاقات واسعة من الخصوبة في التربة ، وفي الاحتمالات غير المستثمرة في تربية المواشي وتنظيم المحاصيل والحيوانات ، ووجدت قوى البخار والكهرباء بشكل معطل ، غير معروفة وغير مطبقة • كما كانت امكانات التراكيب الكيماوية موجودة ايضا • فالطاقة الذرية متوفرة ، الا انه لم يوجد من يعرف اسلوب تطبيقها ، سواء في السلم او الحرب • واما اليوم ، فان الناس يعرفون هذه الاشياء ، وحضارتنا العلمية الحديثة هي حصيلة هذه المعرفة في خيرها وشرها •

ولكن حتى في يومنا هذا ، كم من الاشياء ما زال مجهولا ! ومن أصل ما نعرفه كم هو ضئيل ذلك القسم من الجنس البشري الذي استطاع الاستفادة من هذه المعرفة ! ان الاغلبية العظمى من الجنس البشري ما تزال تعيش في البلدان النامية ، وهي ليست غير متأثرة بتطور العلم والتكنولوجيا ، الا انها غير قادرة على الاستفادة منه لخدمة اغراضها ، وما تزال تمارس فنون الانتاج وفق شروط بدائية جوهريا ، كما أن الناس يأكلون من الاغذية المحفوظة بالمعلبات دون ان تكون لديهم القدرة على صنعها ، ويستمعون الى الاخبار دون

ان يكونوا قد رأوا صحيفة في حياتهم · وحتى في البلدان المتطورة ما زال الانتاج متخلفا شوطا بعيدا عن المعرفة العلمية ، وحتى في الولايات المتحدة ما يزال التخلف والبدائية يوجدان جنبا الى جنب مع الانتاج الجديد الضخم والعملاق ·

ومن هنا تبدو من طبيعة هذه القوى الاتساع بسرعة واستمرار، حالما يتخلص اي قطاع من الجنس البشري من اغلال العادات التي تتميز بها طريقة الحياة الراكدة · فان الاكتشاف او الاختراع يقود الى اخر في سلسلة لا نهاية من التطور ، والعالم حتى عندما لا يكون مستهدفا الوصول الى انجاز اقتصادي عن عمد ، كما هو الامر بالنسبة للعلوم التطبيقية ، فانه يتوصل باستمرار الى معرفة جديدة لا تلبث ان تصبح ذات اهمية في التجارب الاقتصادية ·

ان الفرق البارز بين الحضارة الغربية الحديثة وبين الحضارات الاخرى التي وجدت على الارض لا يكمن في الواقع في انها ديناميكية، بينما الحضارات الاخرى سكونية ، ذلك ان شؤون البشر لم تكن سكونية اطلاقا حتى عندما كانت الخطوات التي احرزها التحول التكنولوجي تقرب طبيعتها بحركتها ذاتها · ففي رأيها من المستحيل التفكير بيوتوبيا من خلال شروط اتقان سكوني ومتوازن : ويصبح المثل الاعلى ليس غاية وانما عملية ــ حركة مستمرة من نصر الى اخر على قوى الطبيعة · ان التفاؤل يجب ان يرتكز على تقبل فوائد تقدم المعرفة ، ذلك انه ما لم يحدث ذلك ، فليس ثمة من شيء يمكن ان يعتمد عليه ، ومن ثم فالتشاؤم لا بد ان يأخذ محله · لقد وجد الانسان الجديد نفسه محاصرا في دوامة كبرى من التطور الاقتصادي ، التي لا بد ان تطويه طيا ، ما لم ينمكن من السيطرة على القوى التي تهدد المجتمع بالخراب الكامل · ان الدول الرأسمالية تبدو بمعنى من المعاني ، وقد احرزت فعلا تقدما عظيما في قدرتها على السيطرة لمجرى الاحداث · فحتى فترة ١٩٣٠ ، كان

يعتبر امرا لا محيد عنه ان العالم الرأسمالي يجب ان ينوس بين سنين الازدهار وبين سنين الكوارث ، وانه يتعين ان تكون هناك اعوام سيئة يصبح فيها ملايين العمال دون عمل ، دون ان يكون الذنب ذنبهم ، وتخفض مستويات المعيشة ، ليس بسبب حدوث أي انخفاض في الطاقة الانتاجية ، وانما لان الخطأ فيها قد يحدث في ميكانيكية التبادل ٠

والان تنتج الدول الصناعية الضروري والكمالي ، كما انها تتقن فنون انتاج السلع الضرورية والكمالية على السواء ٠ ولكنها بسبب مرحلة النمو المتقدمة التي بلغتها لا تحقق اكبر نفع من بيع السلع التي تعتبرها البلاد الفقيرة اكثر ضرورة ، ولا فنون الانتاج التي تعتبرها هذه الدول اكثر ملاءمة ٠ ان الدول الصناعية المتقدمة قد تقبل الدخول في علاقات تجارية مع الدول الفقيرة تبيع بمقتضاها سلعة ضرورية كالقمح الذي يتوفر لديها فائض منه ، بل من الممكن ان تعطي القمح مجانا في صورة معونات ، ولكن بشرط ان تكون الدولة المشترية للقمح او المتلقية للمعونة (زبونا جيدا) ٠ والزبون الجديد هو من يكون على استعداد لشراء كميات وفيرة من السلع الاخرى التي يحتاج البائع الى تصريفها وتحقق له ربحا عاليا ، كالسيارات او الاجهزة الكهربائية او الاسلحة ٠ فالعلاقة هنا شبيهة بما نصادفه أحيانا في حياتنا اليومية عندما يعرض علينا البائع سلعة ضرورية كهدية مجانية ، بشرط ان نقبل ان نشتري منه كمية كبيرة من سلعة لا يجد من يشتريها ولا تلبي حاجة ضرورية بالنسبة لنا ٠ ومن الحماقة ان نطلب من البائع ان يعطينا الهدية ، أو حتى ان يبيعها لنا دون ان تتم بقية الصفقة ٠

واليوم تتعاقد الدول الفقيرة تحت ضغط بائعي الاسلحة على تزويد جيشها بأحدث الاسلحة استعدادا لحرب لا يمكن ان تقوم ، وتقتني آلات حاسبة الكترونية قبل ان تتوافر لديها كمية كافية

من البيانات الدقيقة ، بل ودون ان تكون لديها حاجة الى مستوى رفيع من الدقة في المعلومات • وتنفق مبالـــغ طائلة ، تحت تأثير نصائح الخبراء الاجانب ، على اعداد ما يسمى بدراسات الجدوى لتفويم ما يفرض عليها من مشروعات ، في الوقت الذي لا يحتاج الامر الى اكثر من منطق سليم لادراك ان المشروع محل البحث اما لا غنى عنه او لا طائل على الاطلاق من ورائه •

وقد ادى ارتفاع مستوى الاجور في الولايات المتحدة وزيادة ندرة بعض المواد الاولية الاساسية فيها ، وزيادة حدة الشعور بما يشكله النمو الصناعي من تهديد للبيئة ، الـــى زيادة جاذبية الاستثمار الصناعي في دول العالم الثالث ، بما تقدمه من فرص العمل الرخيص ووفرة بعض المواد الاولية غير المستغلة ، وحيث لا زالت الصناعة تعتبر رمزا للتقدم تهون معه التضحيـــة بنظافة البيئة • ففيما يتعلق بمستوى الاجور ، بلغ عنصر الاجور في نفقة انتاج جهـاز واحد للتلفزيون في تايوان ، وفي صناعة المنتجات الالكترونية ٣١ر٢ دولارا في الولايات المتحدة بالمقارنة بـ ٥٣ر٠ دولار في المكسيك ، وفي صناعة الاحذية ٤٩ر٢ دولارا في الولايات المتحدة بالمقارنة بـ ٤ر٠ دولار في ترينيداد وهكذا • وفيما يتعلـــق بالمواد الاولية ، زادت نسبة واردات الولايات المتحدة من عدد من المواد الاساسية الى مجموع استهلاكها زيادة كبيرة فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٧٠ • ففي البوكسايت زادت هذه النسبة مـن ٦٤٪ الى ٨٥٪ في هـــذه الفترة ، وفي خام الحديد من ٨٪ الى ٣١٪ ، وفي المنغنيز من ٨٨٪ الى ٩٥٪ وفـــي القصدير من ٧٧٪ الى ٩٨٪ وفي الزنـــك من ٣٨٪ الى ٥٩٪ ، وبلغت نسبة واردات الولايات المتحدة مـــن هذه المواد من العالم الثالث الى مجموع وارداتها : ٩٥٪ للبوكسايت و ٣٢٪ للحديد و٥٧٪ للمنغنيز و ٢١٪ للزنك • وفيما يتعلق بتلوث البيئة ، فان زيادة القيود المفروضة على الصناعة بهدف حماية البيئة داخل الولايات المتحدة قد جعلـــت نقل بعض الصناعات ، خاصـــة الصناعات

البتروكيماوية ، الى بعض دول العالم الثالث ، اجراء اقتصاديا ، حيث يعفيها غياب هذه القيود من تحمل النفقات التي يتطلبها تخفيض درجة التلوث ٠

ويعيش اليوم - اذا استطعنا ان نسمي ذلك عيشا - ثلثي البشرية بأقل من ٣٠ر٠ دولار في اليوم ٠ وفي العالم اليوم نحو مليار من الاميين ، رغم ما نملكه من وسائل مادية وفنية لنشر التعليم ٠ وان نحوا من ٧٠٪ من اطفال العالم الثالث يعانون اليوم سوء التغذية ، رغم امتلاكنا من الموارد ما يكفي لتغذيتهم ٠ وان موارد العالم هي من سوء التوزيع بحيث تستهلك البلدان الصناعية ، بالنسبة لكل فرد ، اكثر عشرين مرة مما تستهلكه البلدان الفقيرة٠ وفي العالم الثالث اليوم ملايين من المخلوقات البشرية يكدحون تحت حرارة لاهبة من الفجر الى غروب الشمس في مقابل دخل زهيد ، بانتظار الموت المبكر - بدون أن تكون لديهم حتى امكانية معرفة أسباب هذه الحال ٠

ان لوجوه التفاوت في النظام الدولي نتائج خطيرة جدا ٠ فقد قسمت العالم الى قسمين لا تزال الفوارق تزداد بينهما ، فمن جانب عالم الاغنياء ومن الجانب الاخر عالم الفقراء الذين يجمعهم ماض من الآلام المشتركة ٠ ان (ستارا من البؤس) يقسم الكرة الارضية الى كتلتين ، على الصعيد المادي وعلى الصعيد الفلسفي معا ، احداهما متعلمة والاخرى امية في معظمها ، واحداهما صناعية حضرية والاخرى زراعية ريفية بوجه خاص ، احداهما متجهة نحو فرط الاستهلاك والاخرى تكافح من اجل البقاء ٠ ففي العالم الغني تهتم الناس بنوعية العيش ، وفي العالم الفقير بالعيش نفسه المهدد دوما بالمرض ، وبالجوع ، وبسوء التغذية ٠ وفي العالم الغني ينصرف الاهتمام الى الحفاظ على الموارد غير المتجددة ، وتؤلف كتب علمية في طريقة ابقاء العالم في حالة ثابتة ٠ وفي العالم الفقير

يهتم الناس لا بنفاذ الموارد بـــل باستغلالهـــا وتوزيعها لصالح البشرية جمعاء لا لصالح بعض الامم المحظية دون غيرها • وفي حين يهتم العالم الغني بنتائج فعالياته الملوثة على الانظمة الضرورية للعيش ، يقلق العالم الفقير مـــن (تلوث البؤس) ـ لان مشاكله ليست ناشئة عن افراط في النمو والتكنولوجيا بل عن ضعف فيهما ، كما هي ناشئة عن نقص السيطرة على الظواهر الطبيعية •

وما يثير قلق علماء التربية ان الذين تتوفر لديهم الوســائل المالية يستوردون منتجات الحضارة الغربية ولا يهتمون بما يكفي لاستقدام العوامل التي ساهمت في تقدم الغرب الى بلادهم ، أعني ، التطور العلمي والعمل الجاد والمثابرة وروح النظام • ويثير علماء الاجتماع موضوع الصدمة الحضارية الناجمة عن تنازع مجموعتـــي قيم متواجدتين معا هما : القيم التقليديـــة التي ما يزال الناس متعلقين بأهدابها رسميا (وهي احيانا ملزمة قانونا) ومد لا يقاوم من القيم الغربية من كل الانواع • وواقع الحال هذا ، في نظـــر علماء النفس ، قد يحدث خللا في توازن الفرد النفسي لا في الروابط الاجتماعية وحسب • وأخيرا ، أخذ البعض منهم من هلعه وغضبه لهذا التسرع في تبني أساليب حياة هي موضع نقد متزايد في موطنها الاصلـــي •

وبالرغم من ان التنمية تعتبـــر دعوة العصر ، فهي ظاهـــرة اجتماعية نشأت مع نشأة البشر المستقر انتاجا وارتفاعا وعلاقات، ولكن مفهومها اتخذ صورة محددة في سياق الحضارة المعاصرة •

وقـــد اصبح تعبير التنميـــة اكثـــر دورانا في لغة السياســـة والاقتصاد المعاصرة على المستويات الدوليـــة والقومية والقطريـــة والمحلية ، كتعبير عن التقدم والرخاء والاستقرار ، واصبحت التنمية هي المعيار الذي تقاس على اساســـه مواقع الدول في الحضـــارة المعاصرة وفي المجتمـــع الدولي ، وتصنـــف بها المجتمعـــات ، بين

مجتمعات متخلفة او نامية ومجتمعات متقدمة ، ومجتمعات فقيرة ، ومجتمعات غنية الى اخر التسميات الكثيرة ٠

ولان فكرة المجتمعات النامية ، مع ما يمكن ان يقال وقيل حولها من حيث دقة الوصف ، انما نشأت للتعبير عن التفرقة بين المجتمعات المصنعة والمجتمعات التقليدية ، او التي في طريقها الى التحديث ، فان مفهوم التنمية ، غلب عليه الطابع الاقتصادي والمالي ، في التعريفات التي اعطيت لهذا المفهوم ٠ ومن هنا فقد يحدث الخلط احيانا بين الغنى والتنمية ، بين المال والتقدم ٠ ان فكرة التنمية تنطوي على معنى التقدم التكنولوجي والاجتماعي والتنظيمي ، وهي فكرة معقدة ، صحيح أن الغنى احد نتائجها الملازمة ، ولكنه لا يقوم وحده مقام التنمية ، لان التنمية تنطوي على عناصر متعددة ، متصلة ببنيان المجتمع وبتكوين الفرد ، فالمال في التنمية ، مال مصنوع من جهد الانسان ، هو ثمرة سعي معين بوسائل معينة ، فالغنى شيء والتنمية شيء اخر ، ذلك لان المال والتقدم وان كانا قريبا من قريب الا انهما ليسا شيئا واحدا ٠

وقد اكتسبت التنمية شرعيتها من الامور التالية :

١ ـ انها معايير كمية ، يمكن قياسها وضبطها ، ويسهل تطبيقها ٠

٢ ـ ان لبعض المعايير قيمة رياضية ، اكثر من قيمتها الواقعية وذلك يتمثل واضحا في طريقة حسابات الدخول الفردية ، فهناك دول هي في عداد الدول النامية بحكم ظروفها ، وهي تتصدر قائمة الدول المتقدمة ، بينما نجد دولا اوروبية مصنعة تصنيعا حسنا مثل اسبانيا تقع في المرتبة الثالثة في قائمة الدخول الفردية ٠

٣ ـ وهو اكثر هذه الامور اهمية ، هو ان هذه المعايير تذكر في وظيفة هدف فلسفي متصل بتحقيق السعادة الاجتماعية والتي يعبر عادة عنها في هذا السياق (بمستوى الحياة) ٠

٤ _ ان هذه المعايير منتزعة من خصائص ومقومات المجتمعات المتقدمة ، المجتمعات المصنعة والغنية ، ذلك على اساس انها تمثل التنمية التي تصبو اليها الانسانية ، كمثل أعلى في الحياة الدنيا ٠

اما (ميردال) فقد وصف العلاقة بين التصنيع والتنمية الاقتصادية بما يلي :

(ان التصنيع يمثل ، بمعنى ما ، أسلوبا متقدما من أساليب الانتاج ٠ وفي البلدان المتقدمة ، يتلازم التنمية الصناعية مع التقدم الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة ٠ كما أن كثيرا من منتجاتها هي مجرد (رموز) لمستوى المعيشة المرتفع ٠ وفي البلدان المتخلفة نرتفع انتاجية العامل في الصناعة كثيرا ، عما هي عليه في القطاع الزراعي التقليدي ٠ ان التصنيع وزيادة نسبة العاملين في الصناعة هما اذن ، وسائل لزيادة الدخل الوطني ، بالنسبة للفرد الواحد ٠ وفي الهند واليابان ، التي تمتلك نسبة عالية من السكان الى المصادر الطبيعية ، وخاصة بالنسبة الى الارض ، يمثل التصنيع ، حقيقة ، الامل الوحيد ، في زيادة انتاجية العمل وفي رفع مستوى المعيشة ، وذلك رغم الجهود المكثفة لتحسين الزراعة ٠ وفي البلدان التي ينخفض فيها الضغط السكاني (كما هي الحال في بلدان أمريكا اللاتينية) فان الاستغلال الناجح للعلاقة بين عدد السكان والمصادر الطبيعية ، يقتضي تنمية الصناعية ٠

اما التقدم الاقتصادي فيقاس بمقدار الكمية التي ينتجها كل فرد او كما نفعله دائما في النظريات الاقتصادية الحالية فنحدد تقدم الاقتصاد بزيادة الدخل الجماعي بالنسبة الى السكان ٠

وانماء الدخل الوطني لا يرتكز علـــى انماء نوع واحد مـــن المنتجات فحسب ، ولكنه يرتكز على التكييف المستمر لتنظيـــم الانتاج وبالتالي على اعادة توزيع العمال في فروع الاقتصاد ۰ ولكي ينمو الاقتصاد بسرعة ينبغـــي ان تتجدد الادوات كذلك بأقصى سرعة ، وبالنتيجة ينبغي لمشاريع كثيرة ان تزول ولكثير غيرها ان يستمـــر ۰

واذا كان النمو الاقتصادي قـــد عرف بداياته في بلدان اوروبا الغربية وفي اميركا الشمالية ، فان هذه الظاهرة استلزمت احرازا لرؤوس الاموال بطيئا مستمرا ، والسيطرة علـى الموارد والمعلومات الفنية ۰ فقد استخدم عدد من الفعاليات التي غطت عشرات مـــن السنين ، من الاختراعات الى تطبيقاتها ، ومن الاستثمارات الى الحصول على ثمار العمل ورأس المال ۰ ففي الولايات المتحدة مثلا كان لابد من مرور مائتي عام كي يرتفـــع الناتج القومي الاجمالي بالنسبة لكل فرد من ٢٥٠ الى ٧٠٠٠ دولار ۰ ومع ان العملية كانت أسرع في اليابان فقد اقتضت مع ذلك ١٠٠ سنة كي يرتفع الناتج القومي الاجمالي من ١٠٠ دولار تقريبا الى ٤٠٠٠ دولار ۰ ونعتقـــد اليوم ، فيما يتعلق بالبلدان السائرة في طريق النمو ، ان الآليـــة ستشهد معدلا اكثر تسارعا ، كنتيجـــة للفارق بين هذه البلدان والبلدان الغنية ، هذا الفارق المسؤول ، في رأي بعضهم عن التخلف۰

واذا كان لنا من شيء نختتم به فصلنا هذا فذلك بالرجوع الى قرنين من الزمن او نحو ذلك ، حيث نجد ان متوسط دخل الفرد في بريطانيا عندما احتلت الهند لم يكن يتجاوز في بعض التقديرات ضعف متوسط دخل الفرد في تلك الاقطار ۰ بل ان الاقرب الى العقل هو أن حال فقراء بريطانيا ــ وهم الكثرة من السكان في ذلك الوقت ــ

لم تكن أفضل كثيرا من حال فقراء شبه القارة الهندية • أما اليوم فمتوسط دخل الفرد في بريطانيا يعادل حوالي ثلاثين مرة متوسط دخل الفرد في الهند ، مع ان بريطانيا لم تعد أغنى الامم • وفي داخل الامة الواحدة كان الغني يأكل اكثر من الفقير ، ويشرب أنقى وأغلى ، ويرتدي ثيابا أنعم ، ويسكن دارا أفسح • كان التمايز عادة محصورا في اطار الكم • أما الغني اليوم فان حضارة العصر قد أفتتنت في أن توفر له صندوقا من الاستهلاك متنوعة ، وخلقت لديه احتياجات لم تكن معروفة من قبل •

الجانب الصناعي
من الحضارة العلمية الحديثة

بدأ عصر الثورة الصناعية ، بشكل رئيسي ، كفترة من فترات الاكتشافات في حقل الميكانيك العملي ، ولعبت الكيمياء دورا صغيرا فقط في مراحله الاولى • اما البيولوجيا ، فلم تلعب اي دور على الاطلاق • واما الكهرباء فقد ظلت لعبة • وحتى التعدين كان بشكل رئيسي في أيدي المنتجين الحقيقيين ، اكثر من العلماء • لقد تبدلت طبيعة التطور الصناعي ، بتبديل التركيز على صنع الآلات من اجل ان تحل محل العمليات اليدوية ، الى تجهيز هذه الآلات بالطاقة لادارتها • ذلك ان المشكلات العلمية الصعبة في هذا الحقل ، برزت من تلقاء نفسها بالضرورة – كمشكلات التعدين التي يمكن ان تحل فقط عن طريق الخبراء ، ومشكلات الوقود واستخدام الطاقة المهدورة ، ومشكلات التعدين في اماكن عميقة ، والصناعات الخطيرة الاخرى ، ومشكلات الوزن والثقل والتوتر التي تطلبت عملا مخبريا • وبالطبع وجدت مثل هذه المشكلات سابقا في كثير من الاحوال – فعلى سبيل المثال ، ظهرت هذه المشكلات في بناء الجسور ، وفروع الهندسة المعمارية الاخرى ، الا انها كانت اقل اهمية بكثير •

ومع نمو اقسام الصناعة الكيماوية ، من حيث الاهمية ، واعتبار الكهرباء مصدرا فعليا للطاقة ، اصبحت عمليات الانتاج

تستند اكثر من الماضي الى قاعدة عريضة من اساليب التقنية العلمية . وقد ظهرت فوارق حادة بين الصناعات التي كانت تعتمد بشكل رئيسي على الانجازات المتنامية للعلوم الفيزيائية ، وبين الصناعات الاخرى . ان التعدين والانتاج الكيماوي والهندسة الكهربائية ، كل ذلك يؤلف صلب الفئة السابقة ، مع الفروع الهندسية الاخرى التي ترتبط بها بشدة . ان المنسوجات والملابس ومعظم الصناعات الاخرى الاستهلاكية ، ظلت تنتمي الى الفئة الثانية ، حتى عندما استخدمت الآلات المعقدة التي تدار بالطاقة والتي اخترعت من قبل المهندسين . واما التعدين فقد احتل مركزا متوسطا ، وكان يميل للاعتماد اكثر على المهندسين المدربين علميا، والكيماويين مع ازدياد عمق المناجم التي يجري فيها التعدين ، وزيادة اهمية المنتجات الثانوية كمصدر للربح . وبالطبع فقد استمر تقدم المعدات الآلية التي تتوفر من عدد الايدي العاملة جنبا الى جنب مع هذه التطورات ، الا ان تأثير ذلك ، ظل طيلة الفترة التي تغطي معظم النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اقل ظهورا مما كان عليه وقت الاكتشافات الكبرى في الصناعات النسيجية . لقد قدمت الصناعة الهندسية معتمدة على مقاييس (وتريث) الدقيقة التحسينات المتلاحقة التي أدخلت على المخرطة المركزية ، وتطوير الكثير من الآلات الاختصاصية التي اعتمدت عليها ، واعتمادها ايضا على توليد الطاقة واقتباس المعادن التي تعمل بها ، قدمت لمختلف انواع الصناعة ، مجموعة من الآلات ، التي كانت اقل اعتمادا على المهارة الشخصية لكامل الالة ، وذلك في الاحوال التي لم تكن تتطلب درجة عالية من التعديل الدقيق . الا ان هذه التغيرات جاءت بالتدريج ورافقها توسع عظيم في الطلب ، بحيث ان الاستغناء عن عدد كبير من العمال، كان نادرا

ما يحدث ، كما حدث بالنسبة للنول الآلي في صناعة النسيج ٠ وفي الحقيقة ، ان الطلب على العمال المهرة بالنسبة لجميع الحالات ، قد ازداد باضطراد ، وكانت المشكلة ، باستثناء فترات الكوارث ، اقرب ما تكون مشكلة عثور على عدد كاف من هؤلاء العمال المهرة ، اكثر مما كان مشكلة الاستغناء عن عمال ، لم تعد هناك حاجة اليهم ٠

هناك حدثان استأثرا منذ قرن ونيف بتأمل المفكرين٠ أحدهما هو الثورة الفرنسية ، والثاني هو نشوء المصانع الاولى ٠ فجميع علماء الاجتماع في النصف الاول من القرن التاسع عشر حاولوا من جهة تفسير انهيار الملكية في فرنسا ونظام الطبقات الاجتماعية وتفسير النمو العجيب لوسائل الانتاج من جهة أخرى ، وتحديد النظريات الجماعية وتفسير النمو العجيب لوسائل الانتاج من جهة أخرى ، وتحديد النظربات الجماعية يتوقف على المعنى الذي تعطيه لهذين الحدثين العظيمين ، وبالنسبة اليهما بجب تحديد الطابع الذي تتميز به مسألة (أوغست كونت) و (توكفيل) و (ماركس) ٠

فمسألة سان سيمون وأوغست كونت يمكن تحديدها بكثير من البساطة اذا تذكرنا النص المشهور الذي تخيل به (سان سيمون) زوال مئة من خيرة القواد فجأة ومئة من خيرة السياسيين ومئة من أفضل مستشاري الدولة الخ٠٠ فماذا حدث ؟٠٠ قال : انه لم يحدث أمر غير عادي فقد استمر المجتمع يؤدي اعماله على نفس النمط الذي كان يؤديها عليه تقريبا ولم ينأثر بزوالهم ٠ ويتابع سان سيمون قوله : لنفرض وعلى عكس ذلك زوال مئة من اصحاب البنوك او مئة من خيرة المهندسين او مئة من المنظمين الممتازين : فلا بد ان تصاب جميع وظائف المجتمع بشلل ٠ الغرض من هذه الصورة تحديد وجوه التقابل بين نوعين من المجتمع ، مجتمع قائم

في جوهره على السياسة والطبقية من جهة ، او تبعا لقاموسنا مجتمع عسكري ، ازاء مجتمع اخر قائم في جوهره على الاقتصاد والصناعة ، حيث المسؤولون فيه عن التنظيم الايجابي هم اصحاب المصانع والعلماء والمهندسون والتقنيون ٠

ان الأوغست كونت ، وتوكفيل ، وماركس فلسفة واحدة للتاريخ هي الفلسفة التي تتسم بميسم النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فالثلاثة مقتنعون بأن الحركة التي يحللونها هي حركة لا يمكن مقاومتها ٠ ففي نظر (توكفيل) ، الحركة التي لا يمكن مقاومتها هي الديمقراطية ، وفي نظر (أوغست كونت) لا يمكن الحيلولة دون انهيار الدين وجميع المعتقدات اللاهوتية ، وفي نظر (ماركس) الحركة هي التي تخلق صراع الطبقات وتزيد احتداما بشكل مضطرد ٠

ويبدو الغاء التفاوت الاجتماعي لنوكفيل مؤديا بالضرورة الى تزايد قوة الدولة ٠ ففي مجتمع ديمقراطي لا بد للضعفاء والمحرومين من المزايا العقلية من الاستنجاد بالدولة لتحفيف ما ينجم عن حرمانهم وبلاياهم ٠ فلا يمكن في مجتمع ديمقراطي ، لا يوجد في الاساس ، سوى سلطة واحدة هي سلطة الدولة ٠ ومن هنا يأتي السؤال الذي يطرحه نوكفيل : وهو انه ما دامت مجتمعاتنا الحديثة مجتمعات ديمقراطية فما هي الطبيعة السياسية لهذه المجتمعات ؟ يجيب توكفيل نفسه على هذه الاسئلة : وهو ان المجتمعات الديمقراطية اما ان تنتهي الى الاستبداد واما ان تبقى من الناحية السياسية حرة ٠ واذا أردنا ترجمة هذه الافكار في عبارة من مصطلحات علم الاجتماع الحديث لقلنا : اننا لو فرضنا تغيير المجتمع الديمقراطي مبدئيا فان هذا الافتراض لا ينتج عنه بالضرورة نظام برلماني ولا نظام مستبد ٠ ويتضمن مجتمع ديمقراطي ايضا كاحتمالات ممكنة ، استبداد حزب واحد كما يتضمن مناوءة احزاب

عديدة له ٠ فهناك اذا امور تنشأ بالضرورة من تساوي الاوضاع وأمور اخرى لا تنشأ عنها بالضرورة ٠ اذا فهناك نوع من المسائل الذي ينتج بالضرورة عن تساوي الاوضاع وأمور اخرى ٠

ويجدر بالذكر ان (توكفيل) يرى في الثورة الفرنسية ظاهرة اساسية لا بد منها لانه يتبع الحركة التي تسير خلال العصور نحو تساوي الاوضاع ٠ ولكن هذه الحركة بدأت قبل الثورة الفرنسية بكثير وقد تجاوزت في تتابعها المجتمع الفرنسي ومن جهة ثانية فقد كان من الممكن ان تحصل في أي مجتمع من المجتمعات بدون ثورة ٠

أما في نظر (ماركس) فللثورة مغزى اخر يختلف كل الاختلاف عنه في نظر توكفيل ٠ فهي في نظره ترتكز على نزاع أساسي في داخل المجتمع قبل الثورة ٠ وقد كان المجتمع يحتوي على اشكال من النظام الاقطاعي وقد انقسم الى دول نمت داخله بالتدريج وسائل الانتاج التي كان لا بد ان تطيح بالاطارات التقليدية ٠ يتفق (ماركس) و (توكفيل) على الاعتقاد بأن الثورة الفرنسية هي نتيجة حركة استمرت خلال العصور ٠ ولكن انفجارها العنيف كان في نظر (توكفيل) حادثا يبعث على الاسف ٠ كان يرى بأن المساواة يمكن ان تتحقق من غير العنف الذي اتسمت به اعوام الثورة الفرنسية والامبراطورية ٠ خلافا لذلك فقد اعطى (ماركس) هذا الانفجار بحد ذاته وهذا التصدع العنيف قيمة أساسية ٠ فقد رأى بأن رفض النظام القديم والانتقال الى نظام جديد هو نتيجة حركة تاريخية ولا يمكن ان يتم بصورة تدريجية وانما كان ينبغي ان يتم بواسطة العنف ٠ ان الظاهرة الثورية بنظر (توكفيل) تتعلق بالماضي اكثر مما تتعلق بالمستقبل ٠ وعلى العكس فالظاهرة الثورية بالنسبة الى (ماركس) حصلت لاوة مرة في الماضي ولكنه كان لا بد للطبقة الثالثة او الرابعة أي البروليتاريا عند مجيئها من ان ترتدي طابع الثورة ٠

واصبح الان من الحقائق الراسخة ان المنجزات التكنولوجية الاساسية كانت ـ في بداية الحقبة الصناعيه ـ هي منجزات الحرفيين المهره ، وليس منجرات العلماء بالمعنى الدفيق للكلمة • فلم يحدث الا في خلال القرن التاسع عشر ان اصبح التقدم التقني في الصناعة والزراعة معتمدا حقا على تطور العلوم التطبيقية • وفي القرن العشرين اصبحت العلاقات بين العلوم والتكنولوجيا أوثق حتى من ذلك ، نظرا لحقيقة ان عملية النمو الصناعي بمجملها قد دعمتها اكتشافات جديدة في ميدان الالكترونيات والطاقة النووية وانظمة المعلومات القائمة على (الكومبيوتر) •

ومن ناحية اخرى فاننا حينما نتطلع الى الوطن العربي في خلال المائة والخمسين سنة الماضية لا نجد انجازات تكنولوجية في الصناعة او الزراعة ، على الرغم من حشد مثير من انظمة التعليم الحديثة التي تنتج خريجين في معظم ميادين العلوم الحديثة • بل الاحرى ان تبعية الوطن العربي التكنولوجية للخبرات والمهارات التقنية الاجنبية لم تكن ابدا اكبر مما هي اليوم ، في وقت يتضاعف فيه عدد خريجي الجامعات ، كل ٣ر٥ سنوات ، وفي وقت بتوقع ان يصل فيه هذا العدد الى ١٢ ملبون خريج في العام ٢٠٠٠ •

وقد أتت الثورة الصناعية نتيجة تشجيع جميع اشكال الفنون والادب من قبل النخبة السياسية الحاكمة منذ عصر النهضة (أي اواخر القرن الخامس عشر) ونتيجة تشجيع الفضول حيال المدنيات الاخرى وارسال البعثات وراء البعثات سعيا لاكتشاف العالم وفتحه والاستفادة مما تتمتع به الشعوب الاخرى من وسائل الراحة والرفاهية والعلم • وهذا تماما ما قامت به المدنية العربية عندما كانت في أوجها ، فقد قام العرب حينذاك بالاكتشافات وفتح البلدان النائية واستيعاب احسن ما كانوا يجدونه لدى الشعوب الاخرى وتشجيع جميع انواع الفنون والعلوم • ومن اسرار نجاح الحضارة

العلمية الحديثة في الاستمرار في التقدم ان النخبة المثقفة استقلت الى حد بعيد عن السلطة الدينية والزمنية واصطدمت بها عند اللزوم علميا وفلسفيا وادبيا ، فلا العلماء ولا الادباء والفلاسفة قبلوا بتلقي الاوامر المخالفة لاكتشافاتهم العلمية او لاستنتاجات عقلهم او لتطوير مواهبهم الفنية سواء كان مصدر هذه الاوامر الكنيسة او الدولة • وقد تكونت في اوروبا نخبة مثقفة (انتلجانسيا) مارست وظيفة اساسية في المجتمع وبطريقة مستقلة ، مما سمح للحضارة العلمية الغربية ان تنمو وتتطور بالرغم من مآسي ومظالم واهواء اصحاب الحكم وتقلب الاوضاع السياسية ، من مونتاين الى مونتسكيو ودبكارت وروسو وهيوم وكانط وهيغل الى اخره ، قامت نخبة مثقفة بتوسيع رقعة الثقافة والحضارة والتعمق في القضايا الكبرى للانسانية ، احيانا بالانسجام مع السلطة السياسية والدينية واحيانا بالتصادم معها • هذا المناخ الحضاري هو الذي سمح الى جانب عوامل اجتماعية اخرى وصفها ماركس – ببروز الثورة الصناعية • فالصناعة في الاساس فن من بين الفنون يجب ان يعتني بها المجتمع ، وخصوبة المناخ الحضاري هي التي تشجع تطور المبادرات والابتكارات الصناعية ، اما التنظيم المجتمعي فهو الذي يعم او يعرقل تعميم الابتكارات الصناعية في المجتمع • لقد ثبت من (جراء ابحاث جوزيف بندهام) ان الصين كانت اكثر تقدما في العلوم من اوروبا حتى القرن الثامن عشر ، غير ان التنظيم المجتمعي في الصين وشدة تعلق النخبة المثقفة والحاكمة في نفس الوقت بالتقاليد التي أصبحت المصدر الوحيد لامتيازاتها هما العاملان اللذان حالا دون استفادة المجتمع من التقدم في العلوم وتجسيد هذا التقدم بحركة صناعية •

وقد كانت بلدان أوروبا الغربية وأميركا الشمالية ، وكذلك روسيا واليابان هي وحدها قادرة ، حتى الحرب العالمية الاولى ، على استقبال التكنولوجيا الجديدة المعتدلة التعقيد • وكانت

التقنيات حينذاك معقدة وقلما يعول عليها ، وكان تشغيل المنشآت الحديثة وصيانتها يبدوان صعبين جدا وباهظي الكلفة ، وذلك حتى في المناطق والاوساط التي كان النقل فيها يتم على وجه مجد ۰ واليوم تصلح تكنولوجيات عديدة علمية وصناعية لان تقام من جديد ۰ والمثال البسيط على ذلك هو ان كل بلد في طريق النمو يملك مصنعا للفولاذ طاقته الانتاجية السنوية لا تقل عن مليون طن او ينوي اقامة مصنع ۰

ومن مظاهر مرونة التقنيات الجديدة الاكثر مدعاة للدهشة انتشار حاسبة الجيب او النظامة الصغيرة انتشارا عجيبا ۰ فأكثر النظامات الصغيرة تطورا لا يكلف سوى ۱۰۰ دولار وثمنها في هبوط مستمر ۰ وهي كغيرها من النظامات تقوم بعدة عمليات وتوجه عشر ذاكرات ، مع قدرتها على معالجة ۱۰۰ عملية في آن واحد ۰ والواقع ان هذه الاجهزة تصلح لاجراء الحسابات بقدر ما كانت تصلح . قبل ثلاثين عاما ، النظامة التي ربما كانت تشغل مساحة من الارض من ۴۰ الى ۵۰ م۲ ، وتكلف اكثر من مليون دولار وتتطلب فريقا من خمسة اشخاص الى عشرة ۰ فجميع البلدان تستطيع منذ اليوم أن تفيد من المعارف التقنية التي تزداد تقدما۰ ولدى كل أمة الوسائل الكافية لشراء هذه التكنولوجيات الجديدة ، واقامة التجهيزات الضرورية ، وتوقع مردودية لعدة سنوات ، كل ذلك بدون ان تنهك نفسها بجهود جبارة لتكييف الموظفين وتدريبهم ۰ ولا تقف تشكيلة المنتجات عند الاصناف التي تصلح للانتاج ، بل تشتمل كذلك على السلع الاستهلاكية التي تجعل العيش أرغد وأيسر وأسلم : كأجهزة الراديو ترانزيستور ، وأجهزة التلفزيون والفيدبو ، وأجهزة الهاتف ، والمضادات الحيوية وأجهزة الاشعة السينية الخ ۰۰

والملاحظ انه لمن التبذير ان يستورد مصنع متطور مع معداته دون ان تؤخذ بعين الاعتبار البيئة العلمية والتقنية المرسومة مسبقا

ضمن اطار سياسة اقتصادية محكمة • فكم هي ، في الواقع ، عديدة البلدان ذات الانماط الانتاجية المتعددة ، التي راحت تنتهج هذا النهج في التنمية ، عبر عقود ثنائية ووفق أهداف سياسية ظرفية ، راصدة ، بذلك كل مواردها الضئيلة للحصول على بنى تحتية لا تتطابق ومتطلباتها الموضوعية وامكاناتها ؟

يستحيل اذا ، حصر مسألة نقل التكنولوجيا في استيراد التجهيزات او المعدات المصممة وفق مجموعة من الظروف الخاصة بالبلد المصدر ، والتي قلما تتشابه وظروف البلد المستورد • ومن المعروف ، على كل حال ، ان البلدان الصناعية ، ولاسباب سياسية واقتصادية واضحة ، لن تسعى لتسيير الانطلاقة الاقتصادية ، وبالتالي التكنولوجية والعلمية في بلدان هي في عداد زبائنها ، هذا ان لم تكن أيضا خاضعة لهيمنتها المباشرة او غير المباشرة •

وتبدو القضايا المتصلة بمجالات الطبيعة والمجتمع والانسان والادوات والانتاج الصناعي والزراعي والثقافي قد أصبحت لها أنظمة من المعلومات علمية وتكنولوجية وفنية بالغة التعقيد ، كما ان هذه الانظمة كلها مترابطة متصلة يشملها جميعا منهج واحد ومنطق واحد •

ثم ان المعلومات المتصلة بكل ذلك لا بد ان تتوفر لكل انسان معاصر بدرجات متفاوتة ، وان كان الحجم الاكبر والاعظم من هذه المعلومات لا يأتي عن طريق التجربة المباشرة او العلاقة المباشرة ، انما يأتي بفضل انظمة محددة من المعلومات تمت معالجتها بواسطة بشر وأجهزة تم نقلها الينا بواسطة بشر وأجهزة ايضا •

وبمعنى اخر اصبحت عملية معالجة المعلومات لتقديمها الينا ونشرها علينا تغطي كل المساحة الرئيسية والشاسعة من معرفة الانسان •• وبالتحديد اصبح مستحيلا على الانسان المعاصر ان

حدد وجهة نظره او موقفه او التزامه بدون الاستعانة بالمعلومات التي يقدمها اليه اخرون والتي يعالجها وينظمها له اخرون ٠

والتقدم الجديد بالذكر بوجه خاص هو اننا نستطيع منذ الان فصاعدا ان ننقل التكنولوجيا الزراعية ٠ والحق انه لا يستطاع دوما اقتباس هذه التقنيات مباشرة في بعض الاقطار العربية ٠ فلا بد من القيام بأبحاث محلية ، بادىء الامر ، تتيح اعداد العناصر الضرورية لسير الزراعة المحلية الجديدة ٠ ويجب ان يتزود البلد المضيف بالبنى والبنى التحتية اللازمة ٠ ومع ذلك فنحن قادرون على وضع برامج يمكن تطبيقها في معظم الامكنة وفي جميع الظروف تقريبا ٠

ان الزراعة المستقرة تخلق تقنية تنبثق منها جميع العلوم ٠ ويمكننا ان نلمس ذلك من خلال تطور المنجل البدائي الى المنجل الذي تلاه ٠ فللوهلة الاولى يبدو المنجلان متشابهين جدا : منجل الانسان جامع العشب البري قبل عشرة آلاف عام ، والمنجل الذي عمره تسعة الاف سنة عندما بدىء بزراعة القمح والعناية به ٠ ولكننا اذا ألقينا نظرة مدققة نجد ان المنجل التالي الذي كان يستعمل لحصاد القمح المزروع كان ذا حد مسنن (بينما لم يكن المنجل البدائي مسنن الحد) ، فلو حصد القمح بالمنجل البدائي لاضطر الانسان الى ضرب نبتات القمح بحده وهذا يسقط الحب من السنبلة الى الارض ٠ اما اذا حصدناه قطعا بوساطة منجل مسنن الحد فان الحنطة تبقى في السنابل ٠ ومنذ ذلك الحين لم يطرأ تطور يذكر على المنجل المسنن حتى الحرب العالمية ٠ وهناك العديد من التقنيات والمعرفة الفيزيائية الشبيهة بتقنية المنجل المسنن أتت الينا من كل ناحية من نواحي الحياة الزراعية تلقائيا . لدرجة أننا نشعر وكأن الافكار تكتشف الانسان وليس العكس كما يظن المرء ٠

ان أقوى اختراع في الزراعة كلها ، هو بالطبع المحراث • ويحلو لنا أن نظن أن المحراث مجرد وتد يشق التربة • ومع ان هذا الوتد بحد ذاته اخراع ميكانيكي هام قديم الا ان المحراث - أيضا - شيء أساسي أكثر من ذلك بكثير : انه عبارة عن رافعة (عتلة) ترفع التربة ، وهو اول تطبيق عملي لمبدأ الرافعة • وعندما فسر ارخميدس للاغريقيين بعد ذلك بوقت طويل نظرية العتلة الرافعة، قال انه بواسطة التحكم بنقطة الارتكاز في الرافعة يمكنه ان ينقل الارض • لكن حراثي الشرق الاوسط كانوا يقولون قبل ذلك بآلاف السنين (اعطني رافعة وسأطعم الارض) •

اما العجلة (الدولاب) فقد ظهرت لاول مرة ، فيما يعرف الان بجنوب روسيا ، قبل عام ٣٠٠٠ ق•م• وتدل آثار هذه المكتشفات ان العجلات كانت عبارة عن دواليب من الخشب غير المفرغ مربوطة بزحافة وكانت تستخدم لجر الاثقال ، ثم حورت الى عربة •

ومنذ ذلك الحين صارت العجلة والمحور الجذرين الاساسيين اللذين انبثقت منهما الاختراعات • فمثلا نرى ان العجلة حولت الى أداة لطحن القمح ، وذلك بالاستعانة بقوى الطبيعة • قوة الحيوان أولا ، ثم قوة الرياح والمياه • واصبحت العجلة نموذجا لكل الحركات الدورانية ، وطرازا للتفسير ورمزا سماويا لما هو اعظم من القدرة الانسانية في العلم والفن على حد سواء • فقد صورت الشمس على انها مركبة ذات عجلات ، والسماء نفسها على أنها عجل دوار منذ ان رسم البابليون والاغريق فلك السموات الدوارة المرصعة بالنجوم • وفي العلوم الحديثة ينظر الى الحركة الطبيعية (أي التي لا تصادف أية قوة تؤثر في حركتها) بأنها تسير في خط مستقيم ، اما بالنسبة للعلوم الاغريقية فقد كان ينظر للحركة التي تبدو طبيعية (أي الحركة التي هي من صلب الطبيعة) والتي هي في الحقيقة كاملة بأنها حركة في دائرة •

ان الآلة وسيلة لاستثمار القوى في الطبيعة ـ وهذا صحيح ـ من المغزل البسبط الى اول مفاعل نووي مع كل تطوراته العديدة العاملة . غير انه مع استغلال الآلة لمصادر القوى الكبرى أصبحت بشكل متزايد تفوق استعمالها الطبيعي . والا فكيف يمكن ان تبدو لنا الالة في شكلها الحديث مصدر تهديد ؟

ان المسألة كما تواجهنا ترتبط بمدى القوة التي يمكن للآلة انتاجها ويمكن ان بطرح هذا السؤال على شكل بدائل : هل تقع هذه القوة ضمن محال العمل الذي ابتكرت الآلة من اجله ؟ أم انها غير متناسبة لدرجة انها تسيطر على مستغلها أو تشوه الاستعمال؟ لذا فان المسألة تتطلب منا عودة الى الماضي البعيد ، وقد ابتدأت عندما سيطر الانسان على قوة اكبر من قوته ، أي قوى الحيوان . وفي الواقع فان كل آلة هي نوع من انواع دواب الجر والنقل ، حتى المفاعل النووي هو كذلك . ذلك انها تزيد الفائض الذي ربحه الانسان من الطبيعة منذ بداية الزراعة . ولذا فان كل آلة تعيد وضع الانسان في نفس المأزق الاصلي : هل تعطي تلك الآلة الطاقة وفق متطلبات استعمالاتها المحددة ، أم أنها مصدر طاقة مستقلة تفوق حدود الاستعمالات البناءة ؟ وهكذا فان هذا التضارب في مدى القوى قديم وبعود الى بداية ناريخ الانسان .

ولقد اصبحت الطاقة شغل الناس الجديد ، وبمعنى معين كانت فكرة جديدة في العلم . فقد ظهر ان الثورة الصناعية ـ او الثورة بالاحرى ـ كانت مكتشفة القوة . وبدأ البحث عن مصادر جديدة للطاقة في الطبيعة : الرياح ، الشمس ، الماء ، البخار ، الفحم . وفجأة برز سؤال حاسم : لماذا كل هذه المصادر واحدة ، وماذا يربط بينها ؟ سؤال لم يخطر على بال أحد من قبل . فحتى ذلك الوقت كان اهتمام العلم منصبا على استكشاف الطبيعة كما هي . اما الان فقد برزت الفكرة الحديثة لتحويل الطبيعة من اجل الحصول

على الطاقة منها ، وتحويل شكل من اشكال الطاقة الـى اخر ، ووصلت الى مقدمة واجهة العلم ، وبشكل تبين ان الحرار شكل من أشكال الطاقة ، وأنها تتحول الى أشكال اخرى وفق معدل تحول ثابت ٠ وفي عام ١٨٢٤ كتب مهندس فرنسي يدعى سادي كارنو ـ بعد ان فحص المحرك البحاري ـ رسالة علمية بعنوان (القـوة المحركة للحرارة) ، وصع فيها أسس العلم الذي عرف بعد ذلك بعلم الثرموديناميكا ـ أي الحركة الحرارية ٠ وهكذا اصبحت الطاقة مفهوما مركزيا أساسيا في العلم ، وأصبح الاهتمام الرئيسي للعلم بوحدة الطبيعة ، التي تحتل الطاقة فيها مكانة اللباب ٠

ان الثورات لا تصنعها الاحداث بل يصنعها الرجال ٠ وأحيانا يكونون رجالا عباقرة يعملون بمفردهم ٠ ولكن الثورات العظيمة التي حدثت في القرن الثامن عشر قام بها أناس أقل شأنا عملوا معـا كفريق ، والدافع لهم كان الاعتقاد بأن كل انسان هو المسؤول عن مصيره وانقاذ نفسـه ٠

ان من المسلم به الان ان للعلم مسؤولية اجتماعية ٠ ولكن هذه الفكرة لم تكن لتخطر على بال غاليليه او نيوتن ٠ فقد كان ظنهما ان العلم مجرد وصف للعالم كما هو ، وان المسؤولية الوحيدة التي التزاما بها هي ان يقولا الحقيقة ، اما مفهوم العلم كمؤسسـة اجتماعية فهو شيء حديث بدأ منذ الثورة الصناعية ، ونستغرب عدم وجود أثر للمعنى الاجتماعي قبل ذلك ، لاننا نظن واهمين ان الثورة الصناعية أنهت عصرا ذهبيا ٠

ان الثورة الصناعية سلسلة طويلة من التغيرات ، بدأت حوالي عام ١٧٦٠ وهي ليست الثورة الوحيدة : فهي احدى ثلاث ثورات ، وكانت الثورتان الاخريان ، الثورة الاميركية التي بدأت عام ١٧٧٥ ، والثورة الفرنسية التي بدأت عام ١٧٨٩ ٠ وقد يبدو غريبا ان نجمع في نفس الحزمة ثورة صناعية مع ثورتين سياسيتين ، ولكن واقع

الامر ان هذه الثورات الثلاث جميعا كن ثورات اجتماعية ، وكل ما في الامر ان الثورة الصناعية ـ ببساطة ـ كانت الاسلوب الانكليزي في تحقيق تلك التغيرات الاجتماعية ، ولذلك يفكر بها البعض كما لو كانت الثورة الانكليزية ٠

واذا كان الاستعمار الغربي اول حركه وحدت الارض على اتساعها تحت رابنها ، منجاوزة من كل الوجوه حلم الاسكندر الاكبر الذي لم يجاور أففه شرقا هضبه ايران ، وغربا جنوبي ايطاليا ، وشمالا نهر الدانوب وجنوبا أرض مصر ، هان ما تميز به النصف الثاني من القرن العشرين هو الثورة التكنولوجية في وسائل النقل والانصال ٠ فالطائرة تدور حول الارض في ساعات معدودة ، وان أدى احتلاف الليل والنهار بين أجرائها الى أن يفقد المسافر يوما أو بعض اليوم حين ينجه شرقا ، ويكسب يوما أو بعض اليوم حين يمم غربا ٠ وشبه المواصلات جعلت الراديو الصغير الحجم ، الغني عن انصال كهربي ، الرخيص السعر والتكلفة ، يقتحم القرى ومضارب الخيام ويسمع اهلها ما تبثه الاذاعات ولو في الصين ٠ والاقمار الصناعية في رباطها غير الملموس بالتلفزيون ، تنقل بالصوت وبالصورة ألوان الحياة واحداثها المختارة ملغية ، بعد السينما ، حاجز اللغة ، انه امر جديد حقا في حياة البشر ، له اثاره البعيدة والعميقة والخطيرة في تحريك حاضرهم وتشكيل مستقبلهم ، وهو امر يأبى الردة بطبيعته ، حيث لا ينصور ان تعود البشرية سيرتها الاولى مفرقة لا يعلم بعضها عن الاخر شيئا ٠

كل هذا يترك للمجتمع حرية التكيف مع التغيرات الحاصلة في محيطه ومنها تحدي الحضارة الغربية وتفوق صناعتها ٠ فكل مجتمع ، غير القبائل التي بقيت منغلقة على نفسها تماما مثل القبائل المسماة بالبدائية في اميركا الجنوبية او استراليا مثلا ، له مقومات الصمود والتجدد شرط الا تقضي السلطة السياسية على

عفوية قدرة تكيف المجتمع وعلى ابداعيته ، وشرط ان تترك الحرية الكافية حتى يأخذ المجتمع من الحضارات الاخرى ما يناسبه ويلفظ ما لا يمكن استيعابه ، وشرط ايضا ان يلعب المثقفون دورهم الحضاري العميق والمستقل ولو اقتضى ذلك الابتعاد عن السلطة ٠ وبالدور الحضاري العميق والمستقل اعني الانفتاح الذهني الكامل عن كل التيارات الفكرية ودراستها دراسة جوهرية لا شكلية ، وذلك لاعادة النظر الجريئة في جمود الثقافة الوطنية والقيام بتحديدها ٠

واذا كنا اوردنا ما حبتنا به الحضارة العلمية من جانبها الصناعي ، فهناك من يذهب الى ان فكرة التقدم لم تعد قوة تسير التاريخ ، بل ان التقدم في نفسه اصبح شيئا غير مطلوب على علاته ، فهو يبني شيئا ويهدم اشياء ، ثم ما هي قيمته في اخر الامر ؟ وما الفرق الحقيقي بين ان تصل من لندن الى باريز في يوم او في ساعة ؟ حتى الادوية الناجعة اليوم التي يقال انها اجمل وجه من وجوه التقدم تعالج مرضا وتبتلي الجسم بأمراض اخرى ، وما من دواء منها الا ويكتبون لك فضائل له ومضار ، فكأن الامر في النهاية سيان ٠ ولقد عجز التقدم الحديث عن علاج اي علة اجتماعية اساسية ، بل اضاف الى الموجود منها عللا اخرى ، ثم ان تقدم الوقاية الصحية واساليب العلاج تسير بنا اليوم نحو كارثة الجوع، ولقد كانت الطبيعة فيما مضى توازن نفسها بنفسها ، فأخللنا نحن بهذا التوازن ، ولا نعرف الان كيف نستعيده ٠

والشكل الذي اتخذته الحضارة الصناعية قد جلب للانسان خيرات مادية هو أشد تعلقا بها مما يريد ان يعترف به ٠ وسلبه بالمقابل خيرات لم يكن قد قدر قيمتها : من مستوى عيش اكثر انسانية ، ومن امكانية الالتجاء الى الهدوء والسكون ، و (اضاعة الوقت) مع الاصدقاء ، واقامة علاقات غير مغرضة ٠ انه يشعر بأن انسانيته منتقصة في الوقت الذي تبدو فيه الآفاق العلمية

مفتوحة امامه غير محدودة ، وبأنه أدنى مما يتمنى ان يكون ، واقل شأنا كذلك من المنتجات التي تغريه · ان (صدمة المستقبل) لا تجعله يتمنى رجوعا الى الوراء ، بل ترتيبا جديدا لنظام الاشياء هذا الذي صنعه بنفسه ، ترتيبا لا يكون فيه (مغلوبا على أمره ، تطمسه الاشياء الجامدة) بل يكون له فيه المقام الاول : ولن تكون به حاجة الى سلاح ناري ، او الى سيارة قتالة كي يؤكد شخصيته·

ويقدم ج·ب· تايلور لمحة خاطفة عن الحياة الاكاديمية في اكسفورد بقوله ان الحديث عن انحدار الحضارة (لا يعني سوى ان اساتذة الجامعة كانوا قد اعتادوا على وجود خدم منزليين لديهم في حين انهم اصبحوا الان يغسلون الصحون بأنفسهم) ·

ان سر قوة الامم الغربية المتقدمة لا يكمن في حضارتها – الغربية الليبرالية ·· فهي حضارة ككل الحضارات التي سلفت – مع انها كحضارة ، أفادت من العلم والتكنولوجيا – بل ان سر هذه القوة يكمن ، في الحقيقة ، في حضارتها العلمية التكنولوجية · والعلم هو حيلة تتميز بها الحضارة العلمية الحديثة ، كذلك سعة فعلها التطبيقي · وهو وجه يطالعنا انى قلبنا انظارنا ، ويبدو ما نشاهده او نسمع به من صناعات واختراعات وفتوحات تسابق الخيال وتحير الالباب · فالعالم من هذا القبيل في ثورة صناعية ثانية لها مثل ما كان للاولى ، بل فوق ما كان للاولى ، من اثر بليغ ومن فعل نافذ مستمر في تبديل الاوضاع وتغيير معالم الحياة ·

وحيث ان الثورة العلمية الحديثة تتزايد سرعتها واندفاع تقدمها ، فهي تتطلب من ارباب العلم وطلبته يقظة دائمة وجدا مستمرا ، بل انها لتتطلب هذا الجد وتلك اليقظة من كل جماعة وكل شعب من شعوب الارض · انها لا تتمهل ولا ترحم ، وكل من يتباطأ او يتنكب ، يقضى عليه بالتخلف ، وتقل كفاءته للابداع وللاسهام في بناء الحضارة ، بل قد تضيع جدارته بالعيش والبقاء ·

استيعاب اليابان للحضارة العلمية الحديثة

يصنع التاريخ جزئيا بواسطة حركة الافكار ، وفترة تقدم الحضارة هي فترة تنتقل فيها الافكار بحرية من عقل الى عقل ومن بلد الى اخر ، ومن الماضي الى الحاضر ٠٠ أما العصر البربري، والبلد الهمجي فهما اللذان يحاولان شل الاتصال ، وحبس الافكار ، ومعاملتها كما لو كانت سحرا ـ اما بتعمد حبسها عن الكثيرين ، او عن طريق سخرية الكثيرين منها بلا مبالاة ٠ وليس من شك في أن العقل المغلق علامة على الهمجية ٠٠ انه يرفض قبول الافكار من (الاجانب !) ولا يقبل فكرة مستمدة من الماضي ٠

ومهما توسع التاريخ في البحث والتنقيب لا يستطيع ان يرد جميع الافكار بعد تطورها وتجددها ، الى مصادرها البكر الاولى ٠ فهذه الافكار اذ تهاجر من فرد الى اخر ، او من شعب الى اخر لا تتخذ اشكالا خاصة محددة مقننة ، وانما تعتورها اثناء هجرتها تغيرات سلبية وابجابية ، وتطرأ عليها تطورات قد تكون تقدمية وقد تكون انتكاسية ٠ ولكن هذه التغيرات وتلك التطورات ، سواء كانت تقدمية أم انتكاسية ، لا تتقيد بأوضاع معينة او بأساليب خاصة ، ولا ترتهن بمقومات عنصرية او جغرافية او بيولوجية ، وانما تنطلق انطلاقا حرا لا تحده حدود ولا تقيده قيود ٠

ولكن هجرة الافكار تلك رغم ما تمتاز به من انطلاق حر وحركة موصولة متجددة ، تحدد معالم التاريخ وترسم له خط سيره ، لان هذه الافكار هي التي تصنع الحضارة ، ومن ثم تصنع التاريخ ٠

يمكن اختصار تاريخ اليابان الحديث بمئة عام او اكثر بعض الشيء ٠ ففي عام ١٨٦٨ أقسم أمبراطور اليابان أمام الشعب ـ مرسوم القسم ـ بأن يغير الشعب ويصلحه ، وكان من الواضح ان هذا اعلان عن سياسة لحزب هام بين الوزراء ، فقد كانت العبارة الاخيرة في هذا القسم كما يلي : (سنبحث عن المعرفة في جميع انحاء العالم) ٠

ومنذ ذلك الحين وسياسة اليابانيين تنحصر في تعلم كل ما يمكن تعلمه من الشعوب الاخرى ، ولهذا الامر مغزاه الكبير نظرا لان اليابانيين شعب يعتز بنفسه ويكره ان يضع نفسه في مركز من يعتمد على غيره كما يفعل التلميذ حيال الاستاذ ، وكذلك ظل هذا الشعب لا يثق بالاجانب بل ويكرههم قرونا عديدة ، ولكنهم قوم أقوياء الارادة ، ما ان حزموا امرهم على هذه السياسة حتى نفذوها٠ اما الذين قرروا هذه السياسة فكانوا قليلي العدد ، الا انهم كانوا فعلا من صناع التاريخ ٠

وكان احد هؤلاء الاشخاص (هيرويومي ايتو) ٠٠ فعندما كان شابا صغيرا استطاع ان يقنع سيد الاقطاعي (كوشو) بأن يهجر السهام والاقواس التقليدية ويستخدم البنادق والمدافع ، وبعد ذلك بفترة قصيرة ، وبتشجيع سيده ، ارتكب واربعة اخرين جريمة يعاقب القانون مرتكبها بالاعدام ، ولكنهم رحلوا خارج البلاد ، فقضوا سنة يدرسون في لندن ، وعند عودتهم أصبحوا زعماء الحزب التقدمي في اليابان ٠ وفي عام ١٨٨٢ عهد الى (ايتو) باعداد دستور لبلاده التي لم يكن لها حتى ذلك الحين دستور ، وكانت تعيش فيما يشبه فوضى العصور الوسطى التي تمزقها الحروب الاهلية

وتخمدها الدكتاتورية ·· ولقد اصطحب (اينو) معه عددا كبيرا من الموظفين ، طاف معهم بالدول الاوروبية ، وكان يقابل الشخصيات البارزة ويدرس مختلف نظم الحكومات الدستورية ·· وبعد سبعة اعوام ، أي في سنة ١٨٨٩ ، وبعد كثير من المناقشات والقوانين التمهيدية ، أصدر الامبراطور دستور اليابان الجديد ، وكان مأخوذا من دستور بافاريا · ولقد استمع عشرات من النبلاء والموظفين لخطاب الامبراطور ، وكانوا جميعا يرتدون الزي الاوروبي الرسمي ـ فيما عدا واحد فقط هو الامير (شيمادزو أوف ساتسوما) الذي صفف شعره على النمط القديم ، وارتدى زي القرون الوسطى القديم الذي ظل جميع السادة اليابانيين يرتدونه قرونا طويلة ، ولكنهم ما لبثوا ان تخلوا عنه في مدى سنوات قليلة ، اذ ان التاريخ يتحرك بسرعة اكثر عن طريق التعليم منه عن طريق الحرب ·

وفي خلال هذه الحقبة من الزمان حدثت تغييرات ثورية اخرى مماثلة في اليابان ، وكانت جميعها نتيجة الدراسة خارج البلاد ، فألغي نظام الاقطاع القديم ، ونسي الناس الرتب والالقاب القديمة ، وأنشيء نظام جديد لوراثة الامراء والمراكيز والكونتات والفيكونتات والبارونات على غرار النظام الاوروبي ، وفي عام ١٨٧١ ألغى استعمال التقويم الصيني المعقد غير الدقيق ، وأعلن رسميا استخدام التقويم الغربي الرسمي ، وحتى ذلك الحين كانت النقود اليابانية شبيهة بنقود اوروبا في القرون الوسطى ·

ان اليابانيين لم يسافروا الى خارج بلادهم لمجرد التعلم · فقد جلبوا ـ طبقا لمرسوم القسم ـ ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مدرس ومدرسة من الخارج من بينهم ١٢٠٠ من الاميركيين (كانوا يطلقون عليهم اولا اسم ياتوى (أي الاجنبي المستأجر) وفيما بعد ، أي عندما استحقوا التكريم أطلقوا عليهم أوياتوى (أي الاجانب المستأجرون الاجلاء » ·

وبعد ان نهضت اليابان وسارت على طريق التقدم تأتـــي هزيمتها عقب الحرب العالمية الثانية مرة قاسية : ففي نهاية شهر آب ١٩٤٥ كانت اليابان بكاملها خرابا ٠ مليونان من القتلى ، ٤٠٪ من مساحة المدن ابيدت ، نصف سكان المدن اختفوا ، الصناعــة قضي عليها ، والزراعة اجدبت اراضيها بفعل الافتقار المستمر الى المخصبات والتجهيزات ٠ شعب منهك انفق كل قواه وطاقاته حتى اخر قطرة ، في مجهود الحرب ، وهو مقتنع حتى النهاية بأن زعماؤه سينتصرون وان (الريح الالهية) ستنقذ اليابان ، كما انقذتها دائما ٠ وها هو الان ، شعب لا يملك شيئا ، لا ماديا ولا روحيا ـ شعب جائع ، مذهول ، ضائــع ٠

لنورد ثبتا يختصر على اعتداله ، العصر الياباني في حجمه واحتمالاتــه ٠

ففي عشرة ارقام يترجم الثبت لتطور (الدخل الفردي) في اليابان بدءا (بالنقطة صفر) في العام ١٩٤٥ حتى صيف ١٩٨٠ ٠

الدخل الفردي عام ١٩٤٥ : ٣٠ دولارا ٠ بعد عشر سنوات عام ١٩٥٦ : ٣٠٠ دولار ٠ أي مستوى العالم الثالث للمرة الاخيرة ٠ وبعد عشر سنوات عام ١٩٦٧ : ١٠٠٠ دولار وهي العتبة التي تعد اليوم فاصلة (كنقطة انطلاق) بلد ما نحو التطور ، وهي مثلا الرقم الذي وصلت اليه البرازيل ، قبل الازمة النفطية ٠

عند حدوث الصدمة النفطية عام ١٩٧٠ : ١٨٠٠ دولار ، ونلحظ هنا التسارع ، فقد تضاعف الدخل الفردي او كاد ، هذه المرة في ثلاث سنوات ٠

وبعد الصدمة النفطية الثانية في تشرين الاول ١٩٧٣ : ٣٦٠٠ دولار ٠

وبعد الصدمة النفطية الثالثة وعملية التصحيح الجديدة في

نهاية ١٩٧٩ ' ١٠٠٠٠ دولار • للمرة الاولى تعادلت اليابان مع الولايات المتحـدة •

واخيرا في العام ١٩٨٠ : ١٢٠٠٠ دولار • ولم يعد امام اليابان ، الا سويسرا والكويت •

آب ١٩٤٥ - آب ١٩٨٠ من نقطة الصفر الى مشارف الاسي ، اللانهايـة •

لكن هذه الارقام ، هذه القياسات ، هذه الانجازات - ما هو مغزاها ؟ ما هو سرها ؟ تلك هي المسألة التي تهمنا •

ذلك ان انجاز اليابان ، مهما بدا بطوليا ولامعا وفريدا ، ليس كثير الاهمية في حد ذاته - الا بالنسبة الى الياباني نفسه • وهذا الانجاز لا يستحق انتباه شعوب العالم الاخرى ، في الوقت الذي تواجه فيه جميعا عصر المحن ، الا اذا كان ينطوي على جانب عالمي، واذا كان يضم ، ويستطيع ان يكشف سرا يتخطى حدود اليابان • وفي الاجمال ، هل تمتلك المغامرة اليابانية الحديثة اساسا انسانيا بالتحديد ، ووصفة قابلة للتطبيـــق في مكان اخر ، الا اذا امكـن فهمها ، واذا كان ثمة رغبة في فهمها ؟

ان مراقبة اليابانيين ودراستهم ومعاشرتهم وهم يعملون في بلادهم ، تسمح بتأكيد هذه الفكرة المركزية : فاليابانيون لم يقطعوا الطريق التي أوصلتهم الى ذروة التطور بين كل الشعوب ، بالرغم من المحرقة الذرية ، والفناء الفكري الذي أحدثته صدمة القنبلة • بل ان العقل الياباني وجد نفسه ، بفعل التحول العقلي الذي صنعه الحدث ، وقد أجبر على اعادة الخلق ، وجد هذا العقل نفسه بدوره وقد بدأ تفاعلا متسلســلا في هذه المادة التـــي لا تنضب الذكاء البشري •

ليس ثمة ذكاء ياباني ، انما فقط ذكاء انساني، والاختصاص

الوحيد لليابانيين هو انهم انكبوا ، قبل غيرهم ، على استغلال هذا الذكاء الانساني استغلالا كاملا .

ان جزيرتهم الكبيره ، قبل كل شيء ، لا تحتوي أي مصدر طبيعي اخر : فلا بترول ، ولا فحم ولا حديد ولا اورانيوم ولا بوكسيت ولا أراضي زراعية - لا شيء فعلا .

وبعد هيروشيما وناغازاكي ، كانوا قد عادوا فوق ذلك الى الفقر والعراء المطلقين ، وقد دمر جهاز انتاجهم ، وايضا دمرت بناهم الفكرية والاجتماعية .

واضطرتهم المتطلبات البدائية اللازمة للبقاء ، الى ان يخترعوا كل شيء من لا شيء ، فانكبوا ، يعملون لا (كالبهائم) بل بتفكير مستمر ، وقد انهارت كل الافكار المسبقة ايضا ، بوسائل البعث ، وبما يمكنهم انتاجه ، وتحسينه ومبادلته وتعلمه واختراعه - بفاعلية اكثر وسعر اقل .

وهذا يقودنا الى القول انه عندما يكون ما نبحث عنه غامضا ، فان المجموعات البشرية التي تتكون في كل مكان تجمع المعلومات وفي يقينها المطلق انها ستستخدمها يوما . ان جمع المعلومات في كل اشكالها ، من العام الى الخاص ، ومن قصير الامد الى الطويل الامد ، ومن الشكلي الى اللاشكلي ، يشمل المجتمع الياباني كله . ففي صفوف المدارس ، وفي ملاعب الغولف ، وفي اثناء المحاضرات والاجتماعات ، وفي معاهد الابحاث كما في المساجلات التلفزيونية ، الخ ، يتعلم الياباني من الجميع : من المحترفين ، ومن الهواة ، ومن الاصدقاء كما من الاعداء ، ومن كل ما يعبر . وتقوم علاقات جديدة عندما يتضح ان هذه العلاقات ستؤدي الى الحصول على معلومات جديدة ، وان عملية تبادل معلومات ستحدث . ومثل هذه العملية لا تؤخذ باهتمام على اية حال اذا لم تكن كاملة وبلا تحفظ .

ان الدراسة والمعرفة هما نشاطات تشمل العمر على امتداده .

وعندما ينهي الشبان اليابانيـون دراساتهم فانهـم لا يكونون أساسا قد اكتسبوا مجموعة معلومات ، بل تعلموا كيف يتعلمون • وحتى عندما يقرأون في منازلهم ، يقرأون ليناقشوا الاخرين فيما قراوه بعـد ذلك •

ويجري تشجيع كل موظف وكل أجير على حدة ، ليطالـب بدروس تدريب اضافيه ، خارج عملـه • وعندما لا يكون ثمـة مجموعة مشكلة ، تشكل مجموعة للنساء اللواتي يبقين في المنزل ، من الشابات والشبان • وتخلق حوافز للعائلات والاصدقاء من اجل ان يحيطوا اولئك الذين يبقون في المنزل وينقطعون عن الحركـة الدائمة للاتصالات والمعلومات • وتنظم في كل مكان دروس تدريب للبالغين ، تنظمهـا المدن والبلديات ، والشركـات الصناعيـة والتجارية ، والهيئات المحلية والاقليمية ، والصحف والتجار كما تنظمها الجامعات • وهذه الدروس في كل مكان غير كافية لتلبية الطلبات •

وتمضي وتيرة الحضارة العلمية الحديثة بسرعة في اليابـان ، فنرى ان اليابـاني لا يمضي فقط وقتا اطول بما لا يقاس من الوقت الذي يمضيه الاميركي في القراءة ، بل ان نسبة المعلومات فيما يقرأ هي اكبر بكثير : فكل ما فيها موضوع للتعليم •

وتطبع كل من الصحيفتين اليوميتين الكبريين في اليابان اكثر من سبعة ملايين نسخة ـ أي ان كلا منهما يطبع اربعة اضعـاف ما تطبعه اقوى الصحف الاميركية •

وقد صرح رئيس قسم علم الاجتماع في جامعة كولومبيا أخيرا بأنه عندما يرغب في ان يرى افكارا جديدة تناقش في اليابان فانه يجد هو وزملاؤه الجامعيون اليابانيون في تصرفهم عددا كبيرا جدا من المنشورات المستعدة لتنشرها على الفور ، اما في اميركا ، فانك تحتاج غالبا الى اشهر عديدة قبل ان تعثر على وسيلة لنقل افكارك •

وينشر في اليابان كل سنة ، ما يقرب من ثلاثين الف كتاب . ومنذ الحرب ترجم حوالي ١٥٠٠٠٠ كتاب لتوزع في اليابان . ان مجموع المعلومات التي تترجم كل سنة الى اللغة الانكليزية ضئيل بالمقارنة مع حجم ما يترجم الى اللغة اليابانية . وعلى الرغم من ان عادة التعلم تستمر في كل سنوات العمر ، فانه يحدث في اوقات منتظمة ان نرغب مجموعة ما في المضي أبعد من المعتاد ، لمناسبة وقوع احداث او بسبب حاجة معترف بها ، فنركز جهودها على مسألة معينة .

هناك سؤال يتعلق بدراسة حركة الافكار فحواه : ما هي الدوافع التي حفزت الناس الى قبول فكرة غير مألوفة ؟ لقد استطاع علماء النفس والاجتماع ان يصلوا الى بعض هذه الدوافع .. وليس من شك في أن الخوف هو اكثرها وضوحا .. فالخوف من تعرض بلادهم للغزو هو الذي دفع بعض المتعلمين اليابانيين الى الاهتمام بنظام العالم الخارجي وذكاء ابنائه .. وكان الخوف هو الذي جعل بعض الدول تجري الى تفجير الذرة .. لقد قال ثاكايداديس ان الحرب معلم عنيف ، ولكننا نقول ان الخوف معلم سريع كفء .. ولقد تقدم التفكير الانساني تقدما واسع الخطى عن طريق الخوف .
وثم دافع اخر هو الكبرياء ، أي الرغبة في الكرامة والاعتبار.. اذ يبدو ان المام الشخص بأفكار نشأت خارج دائرته الخاصة غالبا ما يدل على ان هذا الشخص يملك عقلا اكبر واكثر حساسية مما يملكه زملاؤه ـ مثل امتلاك اثاث اجنبي او ملابس مستوردة . وقد يكون هذا الدافع سلبيا ، اذ ان بعض ـ ان لم يكن كل ـ المجتمعات ضيقة محدودة للغاية ، ولكنه (أي الدافع) قد يكون ايضا وضيعا وانانيا حتى ولو كانت نتائجه حسنة .

يقول علماء الانثروبولوجيا انه يجب علينا ان نفرق بين الافكار والاشياء ، وبين الجوانب المادية والجوانب غير المادية للثقافة ،

بينما يعتقد المؤرخون والفلاسفة انه يجدر بنا ان نفرق بين الفنون والمثل العليا · ومع ذلك ستكون هناك حالات كثيرة ذات خط فاصل عريض ·· فقد قيل يوما ان الاشياء المادية يمكن الاستيلاء عليها بسهولة ، والاشكال غير المادية بصعوبة كبيرة ، ولهذا فقد كان من السهل على الهندي الاحمر ان يستعمل الجياد بدلا من الكلاب كحيوانات للجر ، ولكن كان من الصعب عليه ان يتخلى عن نظامه القبلي · ومما يسترعي الانتباه ان اولئك الذين يهتمون بالشرق الاقصى يبدون اهتماما خاصا من ان المثل العليا الغربية تنتقل الى اليابانيين مع التكنولوجيا الغربية ·

فقد بدأ عصر التكنولوجيا في اليابان منذ سنوات عدة على شكل صناعة مستوردة من الولايات المتحدة واوروبا ثم ما لبثت ان تحولت الى صناعة التصدير نحو الدول الاخرى ·

وتقوم اليابان اليوم بمشاريع تكنولوجية مع دول عدة عبر توقيع اتفاقيات مشتركة تقوم بموجبها بتزويد الخبراء الاساسيين المشرفين على المشروع وجزء معين يتفق عليه من رأس المال ·

ولقد حققت اليابان في هذا المضمار نجاحات لا بأس بها حتى قيل ان تكنولوجيا آسيا اليوم هي (صنع ياباني) · فالشركات اليابانية تلعب دورا حيويـــا واساسيا في صناعة التكنولوجيا في القارة الاسيوية وبالذات في كل من كورية الجنوبية وتايوان وهونغ كونغ وسنغافورة ·

وتدل الاحصاءات الرسمية ان موقع اليابان في سوق التكنولوجيا العالمية ذو شقين : الشق الاول ، وهو يدل على وجود عجز مع دول الغرب الصناعية بمعدل الضعف ، والشق الثاني ، ويدل على وجود فائض ضخم في ميزان تجارة التكنولوجيا مع الدول النامية ، بما فيها دول شرق آسيا التـــي تشكل اضخـــم سوق استهلاكي للخبرة التكنولوجية اليابانية ·

وتشير الاحصاءات ان نسبة ٤٠٪ من مبيعات التكنولوجيا اليابانية الخارجية تمت مع دول شرق آسيا عام ١٩٧٧ ٠ وتعاني اليابان من فائض كبير على صعيد التبادل التكنولوجي الدولي منذ عام ١٩٧٢ ، وقد بلغ حجم المبيعات في هذا الحقل نسبة ٥٠٪ من مجموع الاستيراد خلال عام ١٩٧٧ ٠

ويبرر الخبراء سر هذا النجاح التكنولوجي بقدرة اليابان الكبيرة على استيعاب وتطوير ثم اعادة تصدير هذه التكنولوجيا الغربية الاصل ضمن غلاف ومواصفات وخصائص اسيوية بحتة ٠

ويتابع الخبراء ان لهذه السياسة او الاسلوب او الفلسفة التكنولوجبة نواح عدة ايجابية اهمها عملية خلق ما يسمى بفريق العمل التكنولوجي القادر على حل رموز واكتشاف وتنفيذ متطلبات اي مشروع كان ، واهم مثال على ذلك نجاح اليابان في خلق صناعة فولاذ ناجحة ومزدهرة معتمدة على الاسس والنظم الاوروبية (المعدلة) في هذا المضمار ، في حين فشلت اوروبا في وقف العجز المتلاحق في هذه الصناعة مما تسبب في اغلاق المصانع وتسريح العمال ٠ وفي عام ١٩٧٩ كانت اليابان تشرف على ٤٨٧ مشروعا مشتركا في كورية الجنوبية من اصل ٧٣٧ مشروعا تكنولوجيا أقر تنفيذها خلال فترات ١٩٦٢ - ١٩٧٦ ٠ وتحتل الولايات المتحدة المرتبة الثانية مع ١٥٨ مشروعا ثم فرنسا عبر ٤٣ مشروعا ، واخيرا المانيا الغربية عبر ٧ مشاريع ٠ وقد كان هناك ايضا مشاريع تكنولوجية عدة بين اليابان وامريكا واوروبا ودول العالم الثالث وافريقيا والشرق الاوسط حيث المواد الخام متوافرة بكثرة ٠

وما دمنا بصدد التكنولوجيا اليابانية فنود ان نشير الى صناعة الساعات في اليابان حيث تجاوز انتاجها مبلغ المليارى دولار امريكى سنويا عام ١٩٧٩ ٠

وتقوم هذه الصناعة بانتاج اكثر من ٥٠ مليون ساعة كل عام ،

تبلغ نسبة انتاج ساعات الحائط منها ٢٥٪ فقط ۰ اما الباقي فهو ساعات يد حديثة ذات تقنية عالية واسعار واقعية جدا ۰

وتحتل اليابان في هذه الصناعة المرتبة الثانية بعد سويسرا التي تنتج حوالي ٧٠ مليون ساعة كل عام ويأتي الاتحاد السوفيتي في المرتبة الثالثة بانتاج يصل الى ٣٦ مليون ساعة سنويا وتليه الولايات المتحدة في المرتبة الرابعة بانتاج ٣٢ مليون ساعة سنويا ، ثم تتبعهم بالتدريج كل من هونغ كونغ وتايوان وكورية الجنوبية ۰

وتنتج اليابان بواسطة حجر الكوارتز نسبة ٥٠٪ من حجم الاستهلاك العالمي ، بينما لا تتعدى نسبة انتاج سويسرا ٨٪ فقط من هذا النوع ۰ ويعلم اليابانيون جيدا ان الساعات في سويسرا ستنتقل قريبا الى عصر الكوارتز في محاولة لتضييق رقعة الفرق الشاسع في الانتاج ، ويقدر الخبراء في هذا الشأن ان تحقيق التوازن بين الانتاج السويسري والياباني في هذا الحقل يتطلب وقتا طويلا لن يتم تحقيقه قبل نهاية الثمانينات على الاقل ۰

ان النهضة التكنولوجية اليابانية العملاقة تجعل المرء يتساءل عن الوسائل التي أدخلت بها الافكار الجديدة لليابان - بالقوة او الاقناع او بمجرد الجاذبية ، وعلى آماد طويلة من الزمن والفراغ ، او بالاتصال الوثيق مثلما كان الحال بين العرب والاسبان ۰ ولقد أشير الى طراز عجيب من التغيير الثقافي أطلق عليه اسم (الحافز الاشعاعي) ويحدث ذلك عندما يريد شخص في جماعة ان ينافس نشاطا معينا تمارسه جماعة اخرى ويبذل مجهودا يكاد يكون مستقلا عن مجتمعه لتحقيق هذه الغاية ۰۰ وبهذه الطريقة اخترع البورسلين في اوروبا اثناء القرن الثامن عشر بعد ابحاث كثيرة لا لشيء الا لينافس ويتساوى مع البورسلين الصيني الذي ظل يصدر الى اوروبا حوالي مائتي عام ۰ ولقد كان من الجائز الا يصنع هذا الاختراع اطلاقا لولا هذا الحافز الخارجي ۰۰ والامر نفسه صحيح ايضا

بالنسبة لاختراع سيكوبوا للكتابة باللغة الشروكية التي نتألف من حروف اللغة الانجليزية ولكنها تمثل مقاطع في اللغة الشروكيـــة ٠ ولقد استمد سيكوبوا فكرة الكتابة من الامريكيين ، واستمد الاشكال من الحروف الرومانية ثم استخدم الاشـــكال استخداما مغايرا ٠٠ استخداما كان يستغرق عدة قرون لو ان مجتمعه أراد الوصول اليه٠

وهنا تبرز بعض المبادىء العامـة ، احدها انه يمكن طمس الافكار بالقوة بينما لا يمكن ان تعلم الافكار بسهولة وبحيث تستمر الى الابد باستعمال القوة ٠٠ وثانيها ان اكثر الوسائل كفاية لتحطيم احدى الافكار او مجموعة مـــن الافكار هي القضاء علـــى البنيان الاجتماعي الذي نعيش فيه واعادة بناء مجتمع مغاير مع استبعاد الفكرة غير المرغوب فيها ، وبالمثل فان أحسن وسيلة لغرس احدى الافكار ، هي جعل المجتمع الذي يستضيفها يهضمها بقدر المستطاع، وذلك بجعلها جزءا من بنيانه الاجتماعي ، فتصبح شيئا يجب ان يتعلمه كل طفل ويقبله كل راشد كقضية مسلم بها ، كما يتولى تعليمها الاهالي انفسهم ، هكذا كان الحال في اليابان ، انها مثال فريد للتطور الحضاري ٠

وقد كتب مؤرخ يقول انه من المحتمـل ان تنمحـــي أثر الافكار الانكليزية في الهند اكثر مما تنمحي أثر الافكار الرومانية في بلاد الغال ، لان الرومان اختلطوا بهم بينما لـــم يختلط البريطانيون بالهنود الا نادرا ٠

وهنا نتســاءل على اي طـــرف ينطبق مثـــل اليابان في هذه المقارنـــة ؟!

المراجــع
باللغة العربيــة

١ — الدكتور حسين مؤنس — الحضارة — سلسلة عالم المعرفه الكوينية رقــم ١ .

١٢ — زهير الكرمي — العلم ومشكلات الانسان المعاصر — سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٥ .

٣ — ج. برونومسكي — ارتقاء الانســان — ترجمــة الدكتور موفــق شخاشيرو — مراجعة زهير الكرمي — سلسلة عالم المعرفــة الكويتية رقم ٣٩ .

٤ — الدكتور فؤاد زكريا — الانسان والحضارة في العصر الصناعي — مركز كتب الشرق الاوسط بالقاهرة .

٥ — الدكتور جلال احمد امين — المشرق العربــي والغرب — مركــز دراسات الوحدة العربية — بيروت ١٩٧٩ .

٦ — الدكتور قسطنطين زريق — هــذا العصر المتفجر — دار العلــم للملايين — بيروت ١٩٦٣ .

٧ — الدكتور جورج قرم — التنمية المفقوده — دار الطليعة — بيروت **١٩٨١** .

٨ — ج.د.هـ. كول — المدخل الى التاريخ الاقتصادي ١٧٥٠ — ١٩٥٠ ترجمة سمير عبده — دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٨١ .

٩ — ريمون آرون — المجتمع الصناعي — ترجمة فكتور باسيل — منشورات عويدات ١٩٦٥ .

١٠ — هيغل — علم ظهور العقل — ترجمه مصطفى صفوان — دار الطليعة — بيروت ١٩٨١ .

١١ — اريك فروم — الدين والتحليل النفسي — ترجمه فؤاد كامل — دار غريب للطباعة — القاهرة .

١٢ — شمال — جنوب : من التحدي الى الحوار — التقرير الثالث الى نادي روما — الجزء الاول والثاني — ترجمه عيسى عصفور — وزارة الثقافة والارشاد القومي — دمشق ١٩٨٠ .

١٣ — الدكتور اسماعيل صبري عبد الله في مقدمته للترجمة العربية لكتاب ستار الفقر — خيارات امام العالم الثالث للكاتب الباكستاني محبوب الحق — الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

١٤ — محيي الدين صابر — التغيير الحضاري وتنمية المجتمع — المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي — سرس الليان / اليونسكو ١٩٦٢ .

١٥ — محيي الدين صابر — الابعاد الحضارية لاستراتيجية العمل العربي المشترك — مجلة المستقبل العربي — بيروت ١٩٨٠/٤/١٤ .

١٦ — الدكتور عبد الرحمن الشهبندر — مجلة الثقافة — الجزء الثاني — السنة الاولى — دمشق ٥ أيار ١٩٣٣ .

المراجـــع
باللغة الانكليزية

17- Arnold Toynbee, A Study of History. O. C Somervel 1969.

18- Bertrand Russell : The Scientific Outlook, London 1959.

19- Bertrand Russell : An Inquiry into Meaning and Truth. Penguin Books 1963, London.

20- Ch. Cooper ed, Science, Technology and Development, Erank cass London 1973.

21- Dawson C.H : The Dynamics of World History. London 1957.

22- C.V. Kisey : Group differences in urban fertility. Baltimore: Williams & Wilkins Co. 1942.

23- Gunnar Myrdal, An International Economy, Harpers & Brother, New York 1956

24- E.H. Carr : What is History. A Pelican book, London.
للكتاب ترجمة عربية بعنوان (ما هو التاريخ) ترجمـــة ماهر كيالى ، بدار عقل المؤسسة العربيه للدراسات والنشر — بيروت .

25- Lynn White, edited : Frontiers of Knowledge in the Study of Man. Copyright in 1956 by Harper & Brothers.

26- F.H.T. Rhodes : The Evolution of Life. Penguin Books 1963 London.

27- R.S Lynd, Knowledge for What ? (N.Y , 1939).

28- Sir Arthur Keith : A New Theory of Human Evolution, New York : Philosophical Library 1949.

29- Lynn White, Midieval Technology and Social Change, Oxford

30- W.J.H. Sprott : Human Groups. Penguin Books 1963 London. 1962.

الفهرس

المقدمــــة	٥
١ ـ الانسان والحضارة	١١
٢ ـ الانسان والحضارة العلمية الحديثة	٢٤
٣ ـ الجانب العقلي من الحضارة العلمية الحديثة	٣٥
٤ ـ مكانة الانسان في الحضارة العلمية الحديثة	٥٩
٥ ـ الجانب الاقتصادي من الحضارة العلمية الحديثة	٧٧
٦ ـ الجانب الصناعي من الحضارة العلمية الحديثة	٨٩
٧ ـ استيعاب اليابان للحضارة العلمبة الحديثة	١٠٥
المراجــــع	١١٧

للمؤلف

١ ــ تاليــف

١ ــ العلاقات المشتركة بين الرجل والمــراة	مكتبة المعارف ــ بيروت	١٩٧١
٢ ــ دراســة في البيروقراطيــة السورية	دار دمشق للنشر ــ دمشق	١٩٧٢
٣ ــ اقتصاديات الذهب	دار الطليعة ــ بيروت	١٩٨٠
٤ ــ المرأة العربيــة بين التخلــف والتحــرر	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٠
٥ ــ الوطن العربي بين التخلــف والتنميــة	دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨١
٦ ــ العرب والتكنولوجيا	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
٧ ــ تحديث الوطن العربي	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
٨ ــ مشكلات الانســان في التحليل النفسي	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٢
٩ ــ الوعي العلمي	دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨٢

٢ ــ ترجمــة

١ ــ اللصوص	فريدريك شيللر دار مكتبة الحياة ــ بيروت نفذت الطبعة	١٩٦٢

٢ — زواج الحب	ماري ستوبس مكتبة المعارف — بيروت	١٩٦٣
	الطبعة الخامسة	١٩٧٤
٣ — هيلين	فيكي باوم مؤسسة النوري — دمشق نفذت الطبعة	١٩٦٣
٤ — في التربية	برتراندرسل دار مكتبة الحياة — بيروت	١٩٦٤
	الطبعة الثانية	١٩٨١
٥ — الممارسة والنظرية البلشفية	برتراندرسل دار الانوار — بيروت نفذت الطبعة	١٩٦٥
٦ — مشكلات نمو الاطفال	عمانويل ميلر دار الانوار — بيروت	١٩٦٦
	الطبعة الثانية: دار مكتبة الحياة	١٩٨١
٧ — التربيه والنظام الاجتماعي	برتراندرسل دار مكتبة الحياة — بيروت	١٩٦٦
	الطبعة الثانية	١٩٧٨
٨ — الصراع على سورية	باتريك سيل دار الانوار — بيروت	١٩٦٨
	الطبعة الثانية: دار الكلمة بيروت	١٩٨٠
٩ — هل للانسان مستقبل	برتراندرسل دار دمشق للنشر — دمشق نفذت الطبعة	١٩٦٩
١٠ — اخلاقهم واخلاقنا	ليون تروتسكي ، جون ديوي ، جورج نوفاك دار دمشق للنشر — دمشق نفذت الطبعة	١٩٦٩
١١ — علم النفس الديني	سيريل بيرت دار دمشق للنشر — دمشق نفذت الطبعة	١٩٧٨
١٢ — مثل عليا سياسية	برتراندرسل دار دمشق للنشر — دمشق	١٩٧٩
١٣ — معنى التحليل النفسي	ارنست جونز دار مكتبة الحياة — بيروت	١٩٨٠

١٤ ــ الفوز بالسعادة	برتراندرسل دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨٠
١٥ ــ من القصص العالمي	تولستوي، دستويفسكي، شيللر، غوغول، الخ. دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
١٦ ــ جزيرة الكنز	روبرت سيفنسون دار الافاق الجديدة ــ بيروت	١٩٨١
١٧ ــ المدخل الى التاريخ الاقتصادي	ج.د.ه. كول دار مكتبة الحياة ــ بيروت	١٩٨٠

SAMIR ABDOH

The ARABS
And Modern Scientific Civilization

Dar - AL - AFAQ - AL - Jadida
Beirut - Lebanon

The **ARABS**

And Modern Scientific Civilization

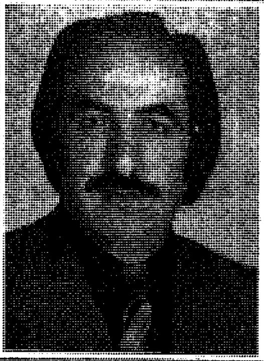

المؤلف

* كاتب عربي سوري من مواليد دمشق ١٩٤٠ .
* بدأ الكتابة في سن السابعة عشرة بمجلة الجندي الدمشقية
* عضو هيئة تحرير مجلة العلوم اللبنانية من عام ١٩٥٨ — ١٩٧٦ .
* رئيس تحرير المجلة البطريركية السورية من عام ١٩٦٢ الى ١٩٧٣
* اذاع عشرات الاحاديث الثقافية في البرنامج الثاني من اذاعة دمشق بين ١٩٦٤ — ١٩٦٥ و ١٩٧٩
* محلل اقتصادي في جريدة تشرين السورية من اواخر عام ١٩٧٨
* يكتب ملف سورية في مجلة Quarterly Economic Review الصادرة عن مؤسسة الايكونوميست البريطانية

هـذا الكتـاب

يتناول المؤلف عبر فصول كتابه تأثير الحضارة العلميـة الحديثة على الوطن العربي مشيرا الى ان الانتقال من الحقيقة المباشرة للخرافة المجردة للعقل والمنطق اقترن بتغيير عام في معنى الانسان . وطرا بهذا الانتقال تحول كبير على وجوده . فالانسان قد اصبح سيدا للعالم بعد ان كان عبدا له . واصبح يغير ويبدل فيه بعد ان كان يتغير ويتبدل به . وانتقل من محض الوجود الى الوجود الغني بالدلالة والمعنى . ومن الوجود في العالم الى السمو على العالم .

وتقاس كل حضارة من الحضارات . بل كل حال من احوال الشعوب . بنوع الحيوية العقلية والصفات الخلقية التي يتميز بها الافراد ويتسم بها الشعب او الحضارة كمجموع . والحضارة العلمية الحديثة التي نبتغيها للوطن العربي تختلف جذريا عن اي من الحضارات التي سبقتها اختلافها عن الحضارة الغربيـة (الليبرالية) رغم انها نشأت عنها وعن جوها ومناخها . ولعل اهم مظاهر اختلافها كونها عالمية غير مرتبطة ببيئة محددة او بوطن او بامة . وكذلك كونها لا تتبع الدورة الحيوية في الحضارات السابقة فهي حضارة الانسان شئنا ام ابينا منذ ان نشأت والى ان يشاء الله .